علم التاريخ

ألفه بالإنجليزية

الأستاذ هرنشو

Prof. F. J. C. HEARNSHAW

وترجمه وعلق حواشيه

وأضاف إليه فصلا فى التاريخ عند العرب

عبد الحميد العبادى

عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

سلسلة المعارف العامة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٤

مقدمة

ظهر هذا الكتاب أصلاً على هيئة فصل من كتاب : (Outline of Modern Knowledge) ، الذى اعتزمت لجنتنا أن تنقل إلى العربيـة طائفة مختـارة من فصوله تنشرها تباعاً . وقد عرضت علىّ اللجنة ترجمة الفصل المذكور ، فترجمته لما وجدت فى مباحثه من جدة وطرافة ، وهأنذا أقدم ترجمته العربية إلى طلاب التاريخ ومحبيه .

وكاتب الأصل هو الأستاذ هَرْنشو ، الذى لايزال على قيد الحياة ، والذى ولى فيما ولى من المناصب العلمية أستـاذية التاريخ المتوسط بجامعة لندن من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٣٤ ، والذى له من التآليف ما يشهد له برسوخ القدم وطول الباع فى علم التاريخ .

كسر المؤلف بحثه على سبعة فصول تناول فيها الكلام على التاريخ من حيث هو علم ، وعلى مقاصده ، وطرائقه ، وتاريخه من أقدم العصور ، وفوائده ، وعلاقته بغيره من العلوم . ولما كان قد أشار إشارة عجلى فى ختام فصله الثانى إلى التاريخ عند العرب ، فقد رأيت إتماماً لفائدة القارئ العربى أن أتبع ذلك الفصل بفصل من عندى أعقـده لعلم التاريخ عند العرب خاصـة ، فتمت بذلك فصول الكتاب ثمانية ، بدلاً من السبعة الأصلية .

ولقد أورد المؤلف فى بحثه طائفة كبيرة من أعلام المؤرخين والفلا

والعلماء والأدباء ممن عسى أن تخفى مكانة بعضهم على الطلاب وأوساط القراء ، فرأيت إتماماً للفائدة كذلك أن أترجم لكل عَلَم من هؤلاء ترجمة وجيزة تقف من ذكرت عليه بعض الوقوف . وبهذه المناسبة أقول إن كل التعليقات الواردة فى هذه الترجمة هى من عند المترجم إلا أربعاً أو خمساً ذيّل كل منها بكلمة (المؤلف) تمييزاً لها عما سواها .

وبعد فإنى أرجو أن تكون هذه الرسالة الوجيزة فاتحة لمؤلفات عربية تتناول علم التاريخ ومناهج بحثه تناولاً أوسع ، وعلى نحو أتم وأوفى ؟

عبد الحميد العبادى

جزيرة الروضة فى { ٢ ربيع الثانى عام ١٣٥٦ هـ
١١ يونيه عام ١٩٣٧ م

الفصل الأول

هل التاريخ علم ؟

رأى الأستاذ بيورى — الحملة عليه من قبل الفلاسفة الطبيعيين ورجال الأدب جميعاً — مناقشة هذا السؤال تنتهى بأن التاريخ علم شديد القرابة من الأركيولوجيا والجيولوجيا ، ولكنه شديد المباينة للفيزيقا والرياضيات — مقاصد علم التاريخ وطرائقه

قليل مما أثر من أقوال الأساتذة فى السنوات الأخيرة أثار من الجدل الكثير ما أثاره إعلان الدكتور ج . ب . بيورى[1] « أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل » وقد كرر الأستاذ هذا الإعلان المنطوى على معنى التحدى والدعوة إلى المبارزة مرتين فى عرض محاضرته الافتتاحية التى ألقاها فى ٣ يناير من عام ١٩٠٣ ، وليس من شك فى أن لهذا التحدى المعاد حظا من الوجاهة ، فإنا نجد أبطالا ينتمون إلى صفين متضادين قد أجابوا الدعوة ، وبرزوا من الصفين ، وصمدوا للمبارزة . نجد الفلاسفة الطبيعيين قد انبروا من ناحية ليثبتوا أن التاريخ دون العلم بكثير ، كما نجد رجال الأدب قد انبروا من ناحية أخرى ليثبتوا أنه فوق العلم بكثير

(١) J. B. Bury (١٨٦١ — ١٩٢٧) أشهر مؤرخى إنجلترا فى الربع الأول من القرن العشرين . كان أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كمبردج ، ومع ذلك فأنفس تآليفه تتصل بتاريخ الإغريق والرومان والبيزنطيين ، وقد ساهم فى إصدار مجموعتى كمبردج للتاريخ القديم والمتوسط

أما الفلاسفة الطبيعيون ، وهم قوم توفروا على دراسة العالم الطبيعى فيذهبون فى الاحتجاج لرأيهم إلى أن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم التى يشتغلون بها من حيث كونها غير ثابتة ولا قابلة للتحديد ، وأنه ليس من الميسور أن تعاين وقائع التاريخ معاينة مباشرة ، وأن الاختبار والتجربة أمران غير ممكنين فى الدراسة التاريخية ، وأن كل واقعة من وقائع التاريخ المسلم بها قائمة بذاتها ، وليس فى الإمكان تصور ظروف يتكرر فيها وقوعها ، وأنه من أجل ذلك لا يتأتى تقسيم الوقائع على وجه الدقة ، ولا يمكن أن نصل فى التاريخ إلى شىء من قبيل التعميمات أو القوانين العلمية ، وأن مادة التاريخ فوق ذلك كله مركبة تركيباً لا نهاية له ، وأنه ليس ثمت اتفاق بين المؤرخين على ما هو هام من الوقائع وما ليس بهام ، وأن عنصر المصادفة يهدم كل تقدير سابق ، ويحبط كل محاولة ترمى إلى تسلف الحوادث ، والإخبار بها قبل وقوعها ، وأن ما يبدو على كل منا — وذلك فوق كل شىء — من قيام الشخصية ، وحرية الإرادة ، يجعل كل مجهود يرمى إلى إقامة التاريخ على أسس علمية مجهوداً ضائعاً بل وداعياً إلى السخرية والاستهزاء . يقول الأستاذ و . س . جيفنز[١] : «من السخف أن نفكر فى التاريخ على أنه علم بالمعنى الصحيح»

أما رجال الأدب فيذهبون فى حوارهم إلى أن التاريخ سواء أكان علماً أم غير علم ، فهو لا ريب فن من الفنون ، وأن العلم ، بالغاً ما بلغ ،

(١) W. S. Jevons عالم إنجليزى (١٨٣٥ — ١٨٨٢) متخصص فى الاقتصاد والمنطق . أشهر مؤلفاته « أصول العلم » Principles of Science

لا يعطينا من التاريخ سوى العظام المعروقة اليابسة ، وأنه لا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام وبعث الحياة فيها ، فإذا ما أحياها الخيال ، فهى بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب النحرير حتى تبرز فى الثوب اللائق بها ، وتعرض بحيث تصبح قوة فعالة فى عالمنا هذا . وهم يقولون فوق ذلك ، إن ما يتصف به رجل العلم من جماد جاف لا محل له ، ولا يمكن أن يطاق ، فى مقام المؤرخ المعنى بشؤون النفوس الحساسة . يقول الأستاذ ج . م . ترفليان[١] : « من كان فاقد الانفعال والحماسة ، فقلما يؤمن بانفعالات غيره ، ثم هو لا يمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبداً »

ثم يتسع نطاق المعركة ، ويتفاقم الخطب ، فإن رجال العلم ورجال الأدب لم تكفهم حملتهم المزدوجة على الأستاذ بيورى حتى أخذ كل فريق منهما يحمل على الآخر ، وقد آل الأمر بهم أخيراً إلى أن كونوا شبه مثلث حال كل فريقين منه كحال لاعبى الشطرنج عند ما يصبح كلاهما مهدداً بهزيمة الشاه إذا أقدم على اللعب به . ثم انجلت الغمرة عن حقيقة واحدة برزت ظاهرة ماثلة للعيان وهى أن الخصومة — إلى حد بعيد — خصومة لفظية ، وأنه لو مهد للموضوع بتعريف الألفاظ وتحديد معانيها فربما كفى الناس معظم عنائها ؛ إن لفظى « علم » و « تاريخ » مبهمان غامضان ، فإذا لم يعن بتعريفهما ، فمن الممكن ، بل من المحتمل ، أن من

(١) G. M. Trevelyan ولد عام ١٨٧٦ وهو الآن أستاذ التاريخ الحديث بكمبردج . وله مؤلفات قيمة منها « تاريخ إنجلترا »

يستعملونهما فى الجدال يستخدمونهما فى معنيين مختلفين مستقلين استقلالا يتعذر معه أن ينتهوا إلى نتيجة ما . يقول اللورد أكتن[1] : « العلم اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعها وحدة عامة على هيئة مبدإ أو قانون يمكننا على وجه اليقين من التنبؤ بحدوث وقائع مشابهة للوقائع المذكورة فى ظروف معينة » . أما وقد عرّف اللورد أكتن العلم بهذا التعريف ، فلا عجب أن يجيب بالنفى الصريح عن سؤالنا « هل يمكن أن يكون التاريخ علما ؟ » على أن العلم ، وإن كان من غير شك دائم البحث وراء التعميمات ، دائم التلمس للقوانين ، دائم الحرص على أن يوهب هبة التنبؤ ، لا ينبغى بحال أن يجرد من اسمه وصفته إذا هو عجز عن بلوغ الأغراض التى يطمح إليها ويطمع فيها . إننا يستحيل علينا (ولو بالمعنى البرلمانى للفظ مستحيل) أن نصل فى الميتيورولوجيا إلى تعميمات خاصة بالجو (وخاصة جو إنجلترا) لأن القوانين التى بمقتضاها يقع التعاقب بين ضوء الشمس وهبوب العاصفة لم تستكشف بعد ، ولأن تنبؤات الخبراء عن أحوال الجو تخطئ من حيث النسب الصحيحة خطأ يتناسب مع حظها من الدقة . ومع ذلك كله لا ينكر أحد أن الميتيورولوجيا علم من العلوم . ذلك بأن العلم يمكن أن يعرف تعريفا جامعاً ، مانعاً ، بسيطا ، فيقال « إنه المعرفة المنظمة ،

(١) Lord Acton (١٨٣٤ — ١٩٠٢) ولد ونشأ وتعلم فى القارة الأوربية ، ثم نصب أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج فى أواخر حياته . وكان موفور الحظ من نبل النفس وسمو المبادئ ، وكان له فضل كبير فى تقدم علم التاريخ بإنجلترا ، وهو الذى وضع الخطة التى اتبعت فى إصدار مجموعة كمبردج للتاريخ الحديث

المبوبة ، المقننة » . ويكفى فى إسناد صفة العلم إلى أى موضوع أن يمضى الإنسان فى دراسته مع صرف شىء من عنايته إلى توخى الحقيقة ، وأن يكون فهماً ذكيًا فى البحث عن كل ما يتصل به من الحقائق ، وأن يؤسس على حكم ناقد اطرح منه هوى النفس وكل افتراض سابق ، وأن يكون قد رد بقدر ما يسمح مضمونه إلى البسائط الثلاث : التصنيف ، والتبويب ، والتقنين[1] . فإذا تقرر ذلك فليس ثمت مسوغ لأن نتعجل إسقاط التاريخ أو أى موضوع آخر من عداد العلوم . فإن كان لا بد من أن نسقط منه عند العمل موضوعات بعينها ، فذلك لأنها متى عرضت على معايير العلم التى ذكرناها آنفاً ، وهى توخى الحقيقة ، وتجميع الوقائع والحكم الناقد ، واطراح هوى النفس ، فإنها تصبح لا شىء . فهل التاريخ من هذا القبيل يا ترى ؟ كلا ! إن التاريخ ، بما للطبيعة البشرية من خصائص ثابتة ، وبما للإنسان من سلطان دائم على البيئة الجغرافية . يقوم على أصول تضارع قيمتها على أقل تقدير ، ذرات الكيماوى الغامضة وألكترونات الفيزيقى الرواغة . إن التاريخ يبحث فى الفعل ورد الفعل الصادرين عن إنسان غير متغير أصلا ، وعن بيئة غير متغيرة أصلا . ذلك

(١) يقول الأستاذ . ه . هكسلى T. H Huxley . « إنى أقصد بالعلم كل معرفة تقوم على الدليل والاستنباط » ويقول الدكتور الكسندر هل Alex. Hill . « كل معرفة معقولة فهى علم » . و « ان العلم معرفة روعيت فيها الأوضاع الصحيحة » ويرى الأستاذ كارل بيرسن Karl Pearson « إن وظيفة العلم تنحصر فى تقسيم الوقائع ، ومعرفة تتابعها ، وأهميتها النسبية » هذا فى حين أن الأستاذ ف . ج تجارت F. J. Teggart يعرف العلم بأنه مجرد « البحث المنظم للتصرفات التى تبدو فى الظواهر الطبيعية » .

هو التاريخ ، فما مضمونه ؟ وعلام يحتوى ؟

يضطرنا هذا السؤال إلى البحث عن مفهوم[١] لفظ التاريخ ؛ والاستقراء البسيط يرينا أن هذا اللفظ يقع على بضعة معان مختلفة فيما بينها اختلافاً بعيداً ، فإذا ما صرفنا النظر عما يتناوله اللفظ من معان دقاق لطاف فإنا نجده يطلق على معان ثلاثة نقصر عليها بحثنا : (١) فلفظ التاريخ يطلق من باب التجوز فى الاستعمال على « **مجرى الحوادث الفعلى** » ، نتحدث عن « موجدى التاريخ » ونحن لا نعنى بالطبع واضعى الكتب التاريخية ، ولكن نعنى الرجال الذين غيروا بأعمالهم مجرى شؤون العالم كالإسكندر ، وقيصر ، ونابليون[٢] ؛ ونتحدث عن « سلطان التاريخ » ، ولا نريد قدرة الكتب المدرسية على التأثير ، ولكن نريد السلطان الذى يكون للظروف أثناء عملية الزمن . لا نتوسع فى الكلام على هذا الاستعمال للفظ (التاريخ) ، فهو استعمال خطأ ولا بد من التجوز فيه لأنه لا يوجد مع الأسف بالمرة لفظ آخر يدل على هذه العملية الزمانية لشؤون العالم .

(٢) والمعنى المهم الثانى للفظ (التاريخ) هو « **التدوين القصصى لمجرى شؤون العالم كله أو بعضه** » ، واستعمال (التاريخ) فى الدلالة على هذا المعنى استعمال مستقيم لا غبار عليه ، وهو أهم استعمالاته . فلدينا تواريخ إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وتواريخ الفن والعلم والأدب ، ولدينا تواريخ أى شىء أو كل شىء تطور على مر الزمن وخلف وراءه آثار تطوره ؛ ومع أن هذا الاستعمال مستقيم وشائع ، فإنه قد يفضى إلى شىء من اللبس

(١) Connotation وهو من مصطلحات المناطقة

(٢) ما كان أحرى المؤلف أن يضع النبى محمداً فى طليعة هؤلاء الرجال

نلحظه وراء كل مناقشة موضوعها : هل التاريخ علم أو فن ؟ ذلك بأننا إذا قلنا إن التاريخ قصة فهو أدخل فى باب الإنشاء الأدبى . والإنشاء الأدبى فن من غير نزاع لكن صناعة الإنشاء الأدبى عند ما تنصب على التاريخ يكون أبلغ فى الدلالة عليها لفظ آخر هو (التأريخ) أى كتابة التاريخ ، فإذا ما استعملنا لها هذا اللفظ فقد زال اللبس وانتهى الإشكال ، لأن كتابة التاريخ فن بطبيعة الحال[١] . وإذا فقد تمهد الطريق إلى بحث المفهوم الثالث والأدق للفظ (التاريخ) . إن هذا اللفظ فى أصل معناه واشتقاقه الدقيق يفيد « **البحث** » أو « **التعلم بواسطة البحث** » أو « **المعرفة التى يتوصل إليها من طريق البحث** »[٢] ، فالمعنى المستتر هنا هو الاستقصاء ، والبحث ، وطلب الحقيقة . وبهذا المعنى يكون التاريخ علماً ، وإلا فليس بشىء على الإطلاق[٣] .

وإذا كان التاريخ على معنى البحث ، إما أن يكون علماً أو لا يكون شيئاً على الإطلاق ، فمن أى أنواع العلوم هو ؟ ما الذى يبحث فيه ؟ ما موضوعه ؟ ما مقاصده ؟ ما طرائقه ؟ سنجيب عن بعض هذه الأسئلة

(١) استعملنا كلمة (تاريخ) بتسهيل الهمزة لكلمة History ، وكلمة (تأريخ) بإثبات الهمزة لكلمة Historiography والأولى تفيد عند كتاب العرب معنى العلم من تحقيق وضبط كقول سفيان الثورى : « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ » ، وأما الثانية فتفيد عندهم مطلق التعريف بالوقت ، فهو أسلوب للأداء ، أى فن

(٢) يشير المؤلف هنا إلى أصل معنى اللفظ فى اليونانية

(٣) يمكن تقريب كلام المؤلف فى هذه الفقرة من فهم القارئ بتصور التاريخ نهراً أزلياً أبدياً ، فمادة هذا النهر هى المراد من المعنى الأول ووصفها كلها أو بعضها هو المراد بالمعنى الثانى ، وتحليلها وتعرف ماهيتها هو المراد بالمعنى الثالث

بوجه أتم فيما يرد من هـذه الرسالة . سنرى عند ما نستعرض تاريخ « التأريخ » أن من هذه الأسئلة ما أجيب عنه فى عصور مختلفة أجوبة صريحة ، قاطعة ، متباينة فيما بينها أشد التباين . أما الآن فنكتفى بأن ندلى بالملاحظات الوجيزة الآتية :

أولا : من أى أنواع العلوم يعتبر التاريخ ؟ إنه ليس كالفلك علم معاينة مباشرة ، ولا كالـكيمياء علم تجربة واختبار ، ولـكنه علم نقد وتحقيق . أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به الچيولوچيا . فـكما أن الچيولوچى يدرس الأرض كما هى الآن ليعرف ، إذا أمكنه ذلك ، كيف صارت إلى حالتها الحاضرة ، فـكذلك المؤرخ يدرس الآثار المتخلفة عن المـاضى ليفسر بواسطتها وبقدر إمكانه ظاهرة الحاضر . وكما أن الچيولوچى يجد مادته الأساسية فيما سلم فى نفايات الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الچيولوچية القديمة ، فـكذلك المؤرخ يعتمد فى معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية ، أو سجلات ، أو تقاليد ، سلمت مصادفة واتفاقاً من عوادى الزمن التى لا تبقى ولا تذر . هذه الآثار ، والسجلات ، والتقاليد ، هى الحقائق المحسوسة الحاضرة التى ينصب عليها عمل المؤرخ . هى مادة علمه . وهى ليست قيمة وهامة لذاتها ، ولـكن لمجرد دلالتها على الوقائع الماضية . ثم هى لا تدل على الوقائع الماضية مباشرة ، ولـكن بواسطة الضوء الذى يلقيه عليها فـكر الباحث . فإن المؤرخ الذى حذف من سجلاته جهد طاقته كل أسباب الخطأ ، واستخلص ما تبقى حقيقة نقية خالصة ، لم يتم بحثه بعد . ذلك بأن الوقائع والآثار مغمورة بمحيط من الآراء ، والإرادات ،

والانفعالات ، التى كانت تلك الوقائع والآثار معبرة عنها أو أثراً لها . هذه الآراء والإرادات والانفعالات حقائق نهائية ثابتة للروح البشرى وخارجة بالمرة عن متناول المعاينة المباشرة ، حتى بالإضافة إلى من شهدوا الوقائع أو أقيمت بينهم الآثار . والمؤرخ إنما يبحث فى آخر الأمر عن هـذه العوامل الخفية التى تبعث الناس على العمل ، يبحث عن هذه الحقائق الروحية الخالدة على وجه الزمان

ثانياً — ما الذى يبحث فيه التاريخ ؟ جملة القول أنه يبحث فى الموجود من مخلفات الماضى وسجلاته التى قد تعين على جلاء الحاضر وتوضيحه

ثالثاً — ما موضوع التاريخ ؟ والجواب أن التاريخ من حيث معناه العلمى لا موضوع له على الإطلاق هو مجرد طريقة بحث . ولـكى يتعين له موضوع ينبغى أن نقرن اسمه بوصف من الأوصاف ، وعلى ذلك تكون الشؤون الماضية للدول موضوع التاريخ السياسى ، والشؤون المـاضية للـكنيسة موضوع التاريخ الـكنسى ، وهلم جراً . وما من وصف توصف به أحوال الإنسان إلا ويمكن أن يوصف به التاريخ . وبعبارة أخرى إن نطاق التاريخ يتسع لجميع الصوالح البشرية ، فـكل ما يقع من الإنسان أو يقع عليه ، وكل ما يبنيه أو يهدمه ، داخل فى حدود البحث التاريخى . لذلك يحق لربة التاريخ أن تقول مع تيرنس [1] : « إنى لا يندّ عنى شأن من شؤون الإنسان »

رابعاً — ما مقصد البحث التاريخى ؟ لقد تقدم جواب هذا السؤال .

(١) Terence شاعر كوميدى لاتينى قديم (١٩٢ — ١٥٩ ق . م) يمتاز بصدق التصوير ورشاقة الأسلوب

فالقصد من البحث التاريخى جلاء الحاضر وتوضيحه . إن جميع المواد التى يبحث فيها التاريخ هى فى الواقع حاضرة موجودة ، ولا يدخل فى متناول بحثه شىء مضى وانقطع وجوده . وفوق ذلك ينبغى أن يسير الباحث فى بحثه على هدى الأفكار ، والآراء ، والمصالح السائدة وقت البحث . ذلك بأن المؤرخ ليس فى مقدوره أن ينتزع نفسه من المحيط الذى يعيش فيه ؛ وليس له فى الحق أن يحاول ذلك . إن قصده كمؤرخ هو بالدقة أن يصل إلى فهم محيطه وفهم نفسه . وجملة القول أن التاريخ كله كما يقول الأستاذ بندتوكروتشى[1] عبارة عن تاريخ معاصر ، وأن كل من يحمل بحق لقب « مؤرخ » هو فيلسوف ، أراد ذلك أو لم يرد . نقول هذا القول ونحن نعنى ما نقول ، لا لمجرد التلاعب بالألفاظ

وأخيراً ، ما طرائق التاريخ من حيث هو علم ؟ هـذا سؤال يعتبر بطبيعة الحال أكبر من أن يجاب عنه جوابا شافياً وافياً فى عجالة كالتى نحن بصددها الآن . لذلك نحيل من يطمع فى جوابٍ مفصل عنه إلى هـذه الـكتب وأمثالها . « خطط التاريخ » لدرويسن[2] (١٨٥٨) ، « طرائق الدراسة التاريخية» لفريمان[3] (١٨٨٦) ، «كتاب فى الطريقة

(١) Benedetto Croce كاتب إيطالى كبير لا يزال على قيد الحياة كتب فى التاريخ والأدب والفلسفة ، ومن أهم مؤلفاته « نظرية وتاريخ التأريخ » Teoria e storia della Storiografia

(٢) J. S. Droysen مؤرخ وأستاذ ألمانى (١٨٠٨ — ١٨٨٤) يمتاز فى كتاباته بقوة الشخصية وباستقصاء القوى المحركة الخطيرة فى التاريخ . ومن أشهر كتبه الـكتاب المذكور فى المتن Grundriss der Historik

(٣) E. A, Freeman مؤرخ وأستاذ إنجليزى (١٨٢٣ — ١٨٩٢) . =

التاريخية » لبرنهايم[1] (١٨٨٩) ، « المدخل إلى الدراسات التاريخية » لمؤلفيه لنجلوا[2] وسنيوبوس[3] (١٨٩٨) ، «فى نظرية التاريخ وطريقته» لمايز[4] (١٩٠٢) ، « منطق التاريخ » لمؤلفه كرمب[5] (١٩١٩) . ونكتفى فى هذا المقام بإيراد النقط الأساسية التى يقول بها واحد أو أكثر من الـكتاب المذكورين .

فالتاريخ من حيث هو علم يختلف أصلا عن العلوم الفيزيقية ؛ هو كما تقدم القول ليس علم معاينة أو تجربة ، ولـكن علم نقـد وتحقيق . ومواده كما يتحدث درويسن «ليست الأشياء التى مضت وانقطع وجودها ولـكن الأشياء التى لا تزال موجودة ، سواء أكانت روايات عما وقع ،

= ومن أشهر كتبه الـكتاب المذكور فى المتن Methods of Historical Study وقد رقى دراسة التاريخ فى إنجلترا من وجهين أساسيين : الاستمساك بفكرة الوحدة العامة للتاريخ ، وبيان أهمية المصادر الأصلية

(١) E. Bernheim أستاذ ومؤرخ ألمانى لا يزال على قيد الحياة ، من أهم كتبه كتابه المذكور فى المتن Lehrbuch der Historischen Methode

(٢) C. Y. Langlois مؤرخ وأستاذ فرنسى (١٨٦٣ — ١٩٢٩) . وضع أكثر من كتاب فى مراجع التاريخ الفرنسى والتاريخ العام . واشترك مع سنيوبوس فى وضع الـكتاب المذكور بالمتن Introduction aux Etudes Historipues

(٣) C. Seignobos أستاذ ومؤرخ فرنسى شهير لا يزال عائشاً . له سوى الـكتاب المذكور فى المتن « نشوء الشعب الفرنسى »

(٤) E. Meyer مؤرخ وأستاذ ألمانى متخصص فى التاريخ القديم لايزال على قيد الحياة . وهو الذى أثبت ما للعادات الشعبية والآثار والعملة من أهمية عظيمة فى فهم التاريخ القديم ، ومن أشهر كتبه كتابه المذكور فى المتن Zur Theorie und Methodik der Geschichte

(٥) C. S. Crump كاتب إنجليزى لا يزال على قيد الحياة . ألف الـكتاب المذكور فى المتن The Logic of History

أم بقايا أشياء وجدت ، أم نتائج أحداث حدثت » ومراحل بحثه الأساسية ثلاث :

المرحلة الأولى : مرحلة التجميع Die Heuristik أى تجميع المواد المعتبرة وقائع صحيحة . ولما كانت الوقائع لا تحصى كثرة ، وكانت كثرتها العظمى ثانوية القيمة — وإن لم يكن منها شيء عديم القيمة بالمرة — فلا بد من ضابط يرجع إليه فى تمييز المهم من غير المهم . فما الضابط المعتبر عند المؤرخين ؟ لعله لم يجتمع اثنان على رأى فى هذه المسألة الخلافية . وبعبارة أخرى ، لو عهد إلى مؤرخين أن يصفا حركة من الحركات ، أو حادثا من الحوادث ، فمن الراجح ألا يتفقا فى القول بأهمية نواح منه بعينها . لقد كان قدماء المؤرخين يستهويهم من شؤون البشر كل ما كان شاذا ، أو دراميًّا ، أو حماسيًّا . وقد صوروا فى أروع أساليبهم الأدبية البِدْع ، والفاجع ، والجليل ، من أعمال الناس . أما المؤرخ العلمى الحديث فأميل أن يختار مما بين يديه من مواد غير متناهية مجرد الحقائق التى يرى أنها تعينه فى بيان تطور المجتمع الإنسانى إلى حالته الحاضرة . وتعتبر الوثائق الخطية أعظم المصادر التى تساعد على بلوغ هذا الغرض . نعم إن هناك مصادر أخرى على شكل عُدَد ، ومبان وحصون ، وصور ، ونقوش ، بل وعلى شكل رواية شفوية أيضا ، إلا أنه قد بلغ من فضل الوثائق الخطية على غيرها من المصادر أن قال لنجلوا وسنيوبوس : « لا تاريخ بغير وثائق » . ثم إن تجميع المواد من الوثائق يقتضى ملكة فنية عالية ، ودراية علمية فائقة ، بفقه اللغة ، وقراءة

النقوش ، والدبلوماسية ، مما لا حاجة بنا الآن إلى الإفاضة فى تفاصيله .

فإذا تم تجميع المواد الأولية تبتدئ **المرحلة الثانية** من مراحل البحث التاريخى وهى **مرحلة النقد** Dîe Kritik فيجب أن يفحص المؤرخ عبارات الوثائق الخطية وأدلة المخلفات الأخرى ، ليتثبت من صحتها وقابليتها لتصديقه . ينبغى أن يناقش الأشياء المذكورة ، وبخاصة الوثائق الخطية ، من حيث صحة أصلها ، ودقة روايتها ، وكون عبارتها فى ذاتها قابلة للتصديق وكذلك من حيث المستوى العقلى والخلقى لكتابتها .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة السابقة على كتابة القصة التاريخية[1] فهى **مرحلة التأويل** Die Hermeneutic وهى أشق المراحل الثلاث مطلباً وأصعبها مراما . فيها تتجلى عبقرية أمثال ليوبولد فون رنكى[2] وفوستل ده كولنج[3] وف . و . ميتلند[4] . وهى مضطرب واسع للخيال

(١) هى المرحلة الأخيرة من مراحل البحث التاريخى وهى التى ذكر المؤلف فى أول الفصل رواية عن رجال الأدب أنها تحتاج إلى الخيال العاطف ومنتهى براعة الكاتب النحرير ، وبذلك تكون مراحل البحث التاريخى الكامل أربعا :
(١) مرحلة التجميع (٢) مرحلة النقد (٣) مرحلة التأويل (٤) مرحلة صياغة القصة التاريخية .

(٢) Leopold von Ranke (١٧٩٥ — ١٨٨٦) مؤرخ وأستاذ ألمانى كبير : توفر على دراسة التاريخ الأوربى الحديث . وعرف بالرجوع إلى المصادر الأولى وبالاستقلال فى الرأى . وقد أنشأ جيلا من المؤرخين نسج على منواله . ومن أشهر كتبه « تاريخ الباباوات فى القرنين السادس عشر والسابع عشر »

(٣) Fustel de Coulanges (١٨٣٠ — ١٨٨٩) أستاذ مؤرخ فرنسى متخصص فى تاريخ اليونان والرومان وتاريخ فرنسا القديم . وضع كتاب « المدينة القديمة » La Cité Antique وهو من خيرة الكتب الفرنسية فى القرن التاسع عشر ، بين فيه أثر الدين فى نشوء اليونان والرومان .

(٤) F. W. Maitland (١٨٥٠ — ١٩٠٦) فقيه ومؤرخ إنجليزى ، =

العلمى القادر على السبح فى أعلى الأجواء ، دون أن يخرج من أضيق حدود الحقيقة . ذلك الخيال الذى به استطاع العالم الزؤلوچى كوڤييه [(١)] أن يعيد تركيب أجسام وحوش بادت من عصور سابقة على التاريخ ، وذلك بواسطة قليل مبعثر من عظامها سلم من البلى مصادفة واتفاقا . إن قلة الوثائق والآثار المتخلفة عن كثير من عصور التاريخ وخاصة صدر العصور الوسيطة فى أوربا النصرانية ، وكثرة الجهل ، وسرعة التصديق ، وافتراء الكذب ، التى يوصف بها من كتبوا عن هذه العصور الوسيطة والاختلاف الكلى بين أساليب التفكير وطرق المعيشة فيها و بين نظائرها فى العصرين القديم والحديث ، كل ذلك يجعل عبء فهمها وتوضيحها لا ينهض به إلا من أوتى أسمى مواهب الخيال العاطف ، أى مواهب العقل والعاطفة معاً .

حسبنا ما تقدم فى بيان علم التاريخ من حيث تصور العلماء له فى الوقت الحاضر ، وسنأخذ فيما يلى فى بيان حالته الآن فى بريطانيا العظمى والقارة الأوربية ، وأمريكا . وسنبحث فوق ذلك عن علاقته كما يدرس الآن بالحياة والفكر فى زماننا هذا . ولكن ينبغى قبل ذلك أن نرجع مع الزمن هنيهة نوجز فيها تتبع الخطوات التى خطاها علم التاريخ ، وفن التأريخ ، حتى وصلا إلى ما هما عليه الآن .

= كتب بالاشتراك مع السير ف . بولوك «تاريخ القانون الإنجليزى» وتمتاز كتاباته بقوة الأسلوب وحيويته وبالقدرة على تصوير الماضى بواسطة المصادر الأصلية .

(١) Georga Cuvier عالم فرنسى (١٧٦٩ — ١٨٣٢) متخصص فى التاريخ الطبيعى ، وضع مؤلفا عظيما فى « مملكة الحيوان موزعة على حسب تكوينها» تناول فيه البحث فى تركيب الحيوانات الموجودة والحفرية البائدة .

الفصل الثانى

إلمامة بالتاريخ والتأريخ

فى العصرين القديم والوسيط

أقدم التواريخ والمؤرخين عند المشارقة — مؤرخو اليونان — مؤرخو الرومان — مؤرخو العصور الوسطى فى أوربا — مؤرخو العرب الذين يحتمل أن لهم أثراً فى تقدم التاريخ فى أوربا فى أواخر العصور الوسطى .

إذا كان تصور التاريخ على أنه علم — أيا كان معنى العلم — تصوراً حديثاً قريب العهد منا ، فإن التاريخ من حيث هو سجل العصور الغابرة وديوانها الحافظ لأخبارها ، قديم قدم اهتداء الإنسان إلى صناعة الكتابة . بل لقد كان الناس قبل ذلك العهد البعيد يتذاكرون قصة الأزمنة القديمة ويتناقلونها ابناً عن أب على شكل روايات شفوية ، وكان الغرض الذى من أجله تنحدر تلك القصة من جيل إلى جيل رواية شفوية أو مكتوبة ، هو من غير شك نفس الغرض الذى ندرس من أجله اليوم التاريخ ونكتبه ، أى من أجل توضيح الحاضر وإلهامه سبيل الرشاد . إن أقدم ما وصلنا من التواريخ ، أعنى تواريخ المصريين ، والبابليين ، والآشوريين ، والعبرانيين ، يتضمن فيما يتضمن من ذكر الخوارق المحضة (كظهور مذنبات ، ونتاج بقر ثنائية الرؤوس) حكايات تحكى عن

العناية الإلهية ، وأقاصيص تقص عن أبطال الشعوب القديمة . ثم جاء القرن الثالث قبل الميلاد فشهد فى وقت واحد تقريباً ظهور حوليات مانيثون[١] المصرى ، وتاريخ بابل لبيروسوس[٢] ، وأسفار تآريخ ملوك إسرائيل ويهوذا . ومن قبل ذلك ؛ أى حوالى ٥٧٥ ق . م كان قد تم تدوين السفرين العبرانيين : سفر الملوك الأول ، وسفر الملوك الثانى . ومن قبل هذه كلها ؛ أى حوالى ٩٠٠ ق . م ظهرت الأجزاء اليَهْوِية[٣] من العهد القديم ، وهى الأجزاء المشتملة على أسفار موسى الخمسة ، وأسفار يشوع وصموئيل ، وهذه أقدم ما فى آداب العالم الحاضرة من الكتب التاريخية . وغنى عن البيان أن الغرض من هذه الكتب كان تعليمياً عملياً أى متصلا بالشئون العامة ، وقلما كان الكُتّاب يعنون ببحث مصادر ما يكتبون ، أو يحفلون بصحة ما يقررون ، بل كان همهم النصح للناس بالتخلق بمكارم الأخلاق ، و إبادة الوثنية ، والدفاع عن عدالة الإله نحو الإنسان .

كانت هذه النزعة الدنيوية عند المشارقة ، يقابلها عند الإغريق

(١) Manetho كاهن مصرى قديم عاش فى بلدة سبنيتوس Sebennytus (سمنود الحاضرة) على عهد بطليموس الأول وبطليموس الثانى ، وضع باليونانية تاريخاً لقدماء المصريين استمده من مصادر مصرية قديمة ، وقد ضاع مؤلفه ولم تبق منه إلا نبذ يسيرة انتفع بها علماء العاديات المصرية انتفاعاً كبيراً .

(٢) Berossus كاهن بابلى قديم ، عاش فى زمن ملك الشام أنطيوخوس الثانى (حوالى ٢٥٠ ق . م) كتب باليونانية تاريخا لبابل استمده من مصادر بابلية قديمة ، وقد ضاع كتابه إلا نتفاً يسيرة مضمنة فى كتب يوسفيوس وأوزيبيوس ، وما ذكره عن الطوفان وجد مطابقاً لما جاء عنه فى النقوش المسمارية .

(٣) نسبة إلى يَهوَه ، اسم إله بنى إسرائيل .

مقابلة عجيبة ما عرف عن ذلك الشعب من نزعة دنيوية وميل إلى تعقل الأشياء . شرع ذلك الشعب العجيب ابتداء من حوالى ٢٠٠٠ ق . م . يهبط غازياً ومتطفلاً أقاليم تأصلت فيها مدنيات البحر الأبيض المتوسط : مدنيات إقريطش ، ومصر ، وآسيا الصغرى . وكانت مدنية إقريطش ، أو المدنية المينوية[١] أول مدنية اتصلوا بها وأكثروا الأخذ عنها . ولما كانت أصول أساطير تلك المدنية تخالف أصول أساطيرهم ، فقد نشأ عن تصادمهما فى العقل الإغريقى نوع من الشك أفاد الإغريق كثيراً ؛ إذ أصبحوا ينظرون إلى الأشياء على حقيقتها ، غير مشوبة بشائبة الخرافة ، وأقبلوا يتعرفون العلل الطبيعية لظواهر كانت حتى وقتهم تضاف إلى ما لا يحصى من أهواء آلهة لا تحصى . والحق أنه عند ما قام تاليس الملطى[٢] فتنبأ بكسوف الشمس فى عام ٥٨٥ ق . م وتحقق تنبؤه ، كان ذلك إيذاناً بمفتتح عصر جديد فى تاريخ تحرر العقل البشرى . لقد تملك الإغريق من ذلك اليوم شغف بالبحث أو بما يسمونه باليونانية (إيستوريا) أى تاريخاً . وكانت شؤون الجنس البشرى أول موضوع انصب عليه ظمأهم الذى لا يروى إلى الاستطلاع ، فطوفوا فى الآفاق ، ودرسوا مدنيات الشرق القديمة ، وجاهليات الغرب الحديثة ، واستثاروا أسرار الماضى ،

(١) نسبة إلى مينوا Minoa مدينة واقعة على الشاطئ الشمالى لجزيرة إقريطش .

(٢) Thales of Miletus (٦٤٠ — ٥٤٦ ق . م) ؛ فيلسوف فيزيقى يونانى قديم عاش فى بلدة ميليتوس (أو الملطية كما يسميها الشهرستانى) الواقعة على ساحل آسيا الصغرى الغربى ، زار مصر وتعلم من كهنتها علم الهندسة ، وتنسب إليه مبتكرات هندسية متعددة ، وكان معدوداً من حكماء اليونان السبعة .

ولم يقر لهم قرار دون الوصول إلى تفسير معقول للأشياء . أول من نعرف من مؤرخيهم هكتيوس[1] ، وكان من مواطنى تاليس المتقدم الذكر ، ولد فى الملطية فى عام ٥٤٦ ق . م أو حواليه ، وهو نفس العام الذى توفى فيه ذلك الفيلسوف الكبير . كتب هكتيوس فى أصل الشعب الإغريقى ، وفى تجوالاته الأولى . ومع أنه كان كثير الخطأ ، فإن روحه كان سليما ، وعقله علميًّا ، وكان يقول : « لست أثبت هنا إلا الحكاية التى أعتقد صحتها ، فإن أساطير اليونان كثيرة ، وهى عندى حديث خرافة » . وجاء من بعد هكتيوس مؤرخ كبير هو هيرودوت[2] الهليكرناسى[3] (من حوالى ٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م) ويلقب أحياناً بأبى التاريخ . وقد اتفق له موضوع دقيق هو موضوع النزاع بين الإغريق والفرس ، أو بين أوربا وآسيا ، أو بين الغرب والشرق . وكان هيرودوت كفأً للفرصة التى أتيحت له ، إذ أدرك أن النزاع الذى فصلت فيه معارك سلميس ، وبلاتى ، وميكالى (٤٨٠ — ٤٧٩ ق . م) إنما هو نزاع موت أو حياة بين مدنيتين متعارضتين ، وطريقتين من طرائق الحياة مختلفتين كل الاختلاف . ومن ثم أتحفنا هيرودوت فى كتابه العظيم بصور لهاتين الحضارتين المصطرعتين تجل عن التقويم ، وبقصة فذة تناولت سلسلة من الحوادث توقف عليها مصير الجنس الإنسانى . ثم يأتى من بعد هيرودوت تيوسيديد[4] (حوالى

(١) Hecataeus

(٢) Herodotus

(٣) نسبة إلى مدينة هليكرناسوس Halicarnassus الواقعة فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى .

(٤) Thucydides

٤٧١ — ٤٠١ ق . م) ثالث مشاهير مؤرخى الإغريق ، وقد اتفق له هو أيضاً موضوع خطير طريف ، وإن كان أضيق نطاقاً من حرب الفرس واليونان ، ذلك موضوع حرب البلوبونيز ، وهى حرب شبت نارها بين المدينتين الشقيقتين المتناحرتين ، آتينا وإسبرطة ، وكانت درامية الأطوار متقلبة الأحوال . كان تيوسيديد إذا قورن بهيرودوت ، أكثر عناية بتحقيق ما يروى ، وأقل ميلا إلى الاستطراد من موضوع قصته إلى تفصيلات لا علاقة لها به ، وإن تكن فى نفسها طريفة أخاذة ، وأقدر من غير نزاع على صوغ القصة التاريخية . غير أنه من ناحية أخرى ضيّق أفق ما عنى به من موضوعات التاريخ ، فأفرط فى حمل التاريخ على جانب الحرب والسياسة ، وعجز عن أن ينفذ إلى أدق أسرار الحوادث ، وبالغ فى تقدير نفوذ الأفراد أمثال تمستوكليس[1] ومن على شاكلته ، ورأى الأمور بوجه عام فى غير وضعها الصحيح . وفوق ذلك كله ، فإنه كتب فى التاريخ لغرض خطابى ، أو كما يصفه كروتشى « تجربى » بمعنى أنه لم ينظر إلى التاريخ على أنه علم وظيفته جلاء الحاضر وتوضيحه ، بمقدار ما نظر إليه على أنه علم وظيفته رسم طريق المستقبل . وكان يقول بدورة الشؤون البشرية[2] ، وبأن « العلم الدقيق بحوادث الماضى قد يفيد لأن من المحتمل أن يحدث فى المستقبل شىء من قبيل ما حدث فى الماضى » .

(١) Themistocles (حوالى ٥٢٥ — ٤٦٠ ق . م) قائد آثينى كبير ، قهر الفرس فى واقعة سلاميس ، وكان زعيم الحزب الديمقراطى فى أثينا القديمة ، تنكر له قومه فى آخر أمره ونفوه فلجأ إلى الفرس ومات فى أرضهم فى عام ٤٦٠ ق . م .

(٢) أو بإعادة التاريخ نفسه كما يقال أحياناً .

يأتى من بعد هؤلاء پوليبيوس[1] (حوالى ٢٠٤ — ١٢٢ ق . م) ، وهو مؤرخ إغريقى عاش فى رومية وأرخ الجمهورية الرومانية . ذهب إلى رأى تيوسيديد فى إمكان دورة الشئون السياسية للإنسان ، غير أنه كان أقوى منه نزعة علمية ، بمعنى أنه كان أهدأ تفكيراً ، وأعدل حكما ، وأقل ميلا إلى الأسلوب الخطابى ، وأشد عناية بتفسير الحاضر منه بتوجيه المستقبل . وكان أكبر همه أن يشرح فى ضوء التاريخ كيف استطاعت المدينة الرومانية المستقلة أن تصل إلى حال من الثبات والقوة لا تقارن بها حال المدن المستقلة فى وطنه الأغريقى . قام بذلك كله فى سفر غزير المادة ، ضمنه قصة الفتوح الرومانية وتحليل النظام الرومانى السياسى ، وهو كتاب يعد نموذجاً للحكم المبرأ عن الهوى ، ومن ثم جاءت عبارته إلى حد ما فاترة غير جزلة . وقد ذهب إلى أن « التاريخ تعليم للفلسفة بضرب الأمثال » ، وهو مذهب عمل فيما بعد على إذاعته ديونسيوس[2] الهليكرناسى (حوالى ١٥ ق . م) والفيكونت بولنجبروك[3] (١٧٣٥ م)

أما من أرخوا لرومية من الرومان أنفسهم فكانوا قليلى العدد متأخرى الزمن . وقد ظل تاريخ هـذه المدينة اللاتينية يكتبه باليونانية

(١) Polybius

(٢) Dionysius مؤرخ إغريقى نزح إلى رومية بعد انتهاء الفتن الداخلية ، ودرس بها اللاتينية ، وكتب كتاباً كبيراً فى تاريخ رومية بقى منه نحو نصفه الأول ونبذ يسيرة من نصفه الثانى .

(٣) Bolingbroke (١٦٧٨ — ١٧٦١) سياسى وفيلسوف إنجليزى مشهور بقدرته الخطابية . وضع كتاباً سماه « رسائل فى دراسة التاريخ Letters on the Study of History »

مؤرخون من الأغريق إلى أن نشر كتاب « الأصول » لكاتو[1] فى القرن الثانى قبل الميلاد (حوالى ١٦٠ ق . م) . وأول كتاب يعتد به فى التاريخ اللاتينى هو بلا مراء الكتاب الفذ المسمى « بالحرب الغوليّة »[2] ، كتبه يوليوس قيصر ، ذلك الرجل العظيم ، الجمهورى ، الديمقراطى ، الذى غـدا اسمه علماً على الإمبراطورية الأوتوقراطية ، والعبقرى الذى لا يشق له غبار فى ميادين السياسة ، والحرب ، والخطابة ، والأدب . إلا أن كتابه المذكور (٥١ ق . م) وإن كان يعطينا صورة ناطقة رائعة لسبع وقائع من الثمان التى ترتب عليها ضم إقليم جديد إلى الدولة الرومانية ، وامتداد الحضارة اللاتينية من بحر الروم إلى المحيط الأطلسى ، فإنه قبل كل شىء سيرة شخصية لمؤلفه ، بل هو فى واقع الأمر دفاع عن سياسة قيصر على الرغم من كل تكتمه ذاتيته . وما يقال عن كتاب (الحرب الغالية) يقال عن كتاب آخر ليوليوس قيصر يسمى « تعليقات على الحرب الأهلية »[3] نشر بعد وفاة قيصر فى عام ٤٤ ق . م، ويعتبر تتمة للكتاب الأول وإن كان أقل منه دقة وإحكاماً .

ثم تأتى بحق بعد كتابى قيصر المنقطع النظير كتب معاصره ومؤازره

(١) Cato (٢٣٧ — ١٤٢ ق . م) خطيب رومانى قديم عرف بصرامة مبادئه كان يتخوف قرطجنة على رومية ، ويقول دائماً « يجب أن تهدم قرطجنة »

(٢) The Gallic War نسبة إلى الغول Gaul ، وهو الاسم القديم للأرض المحدودة بجبال الألب والبرانس والمحيط الأطلسى ونهر الرين .

(٣) Commentaries on the Civil War ، وهى الحرب التى وقعت بين يوليوس قيصر وبين بومبى ومجلس السناتو ، وفيها انتصر قيصر

سالسُت[١] (٨٦ — ٣٤ ق . م) . كتب سالست فى أحداث عصره العاصف المضطرب تاريخاً[٢] مطولا لم نبق منه مع الأسف إلا قطع يسيرة . كتب كذلك رسالتين : إحداهما فى « مؤامرة كاتلين » [٣] التى وقعت على مشهد منه ، والأخرى فى «الحرب اليوجرثية» [٤] التى تقدمت عصره بجيلين من الزمان . وقصته عن كاتلين تعد بوجه عام قطعة صحافية رائعة ، كما أن وصفه للنزاع بين رومية ويوجرثا يتضمن بحثاً يفيد أنه كان فى سعة اطلاعه وقدرته الفنية ، مؤرخاً غير عادى . كان يكتب تارة بعامل الرغبة فى التلذذ بأن يقص عليك قصة طريفة بأسلوب طريف ، وأخرى ، وذلك محل الغرض عنده ، بعامل الرغبة فى أن يذيع فى الملأ الرومانى نذره بأن عجزاً وخيانة من قبيل ما تكشفت عنه الحرب النوميدية ، وإسفافاً وغدراً كالذى ارتكبه كاتلين وشركاؤه ، كل ذلك لا محالة مسرع برومية إلى الهاوية . لقد كان سالست فى كتبه شديد التشاؤم : كان يرى الجمهورية الرومانية تهبط من سيىء إلى أسوأ ، وكان ضعيف الأمل فى أن نذره

(١) Sallust

(٢) هو المعروف بـ Histori ae

(٣) Catiline,s Conspiracy (٦٣ — ٦٢ ق . م) هى مؤامرة سياسية واسعة النطاق دبرها رجل من أسرة رومانية نبيلة الأصل رقيقة الحال اسمه كاتلين ، وقد اختلطت فيها رغبته الخاصة فى تقلد القنصلية بالرغبة العامة فى القضاء على الحكومة الأرستقراطية فى رومية . وقد فشلت المؤامرة لعلم شيشيرون بها قبل وقوعها وحملته على كاتلين فى خطب رنانة ألقاها بمجلس السناتو

(٤) Jugurthine War ، ويقال لها أيضاً الحرب النوميدية The Numidian War (١١١ — ١٠٦ ق . م) ، هى حرب وقعت بين رومية ويوجرثا ملك نوميدية (بأفريقية الشمالية الغربية) ، وفى أثنائها استطاع يوجرثا أن يرشو قائدين رومانيين ، ويهزم ثالثا ، ثم هزم هو أخيراً وأسر وأودع السجن حيث أميت جوعا .

ومكافحة صديقه يوليوس قيصر للأرستقراطية الرومانية تحول دون تردى رومية فى هاوية الدمار .

ثم أتى ليڤى[١] وكانت حياته (٥٩ — ١٧ ق . م) وصلة بين الجمهورية والامبراطورية أو بين العصرين الوثنى والمسيحى ، فكان أبهج رأياً من سالست وأصح فراسة ، كما دلت الأيام ، من حيث مصير الرومان . لقد تغنى ليڤى — تريتشكى[٢] العصر القديم — فى أسلوب يحكى أسلوب خطابى اليونان ، بمفاخر الجمهورية الرومانية ، واقتص قصة فتوحها ، وناشد أبناءها ما عهد فيهم من الإباء وعلو الهمة إلا احتفظوا بقوتها وحدودها ، وإلا عملوا على زيادة تلك القوة ومد تلك الحدود . نعم إنه لم تخف عليه سيئات عصره ، ولكنه كان مؤمناً بأن رومية سوف تحسم مادتها ، وتظهر عليها ، وتسلم منها ، كما فعلت غير مرة فى أيامها العظام الخوالى بإزاء كوارث أشد وخطوب أفدح . أما كفايته من حيث هو مؤرخ فيلاحظ أنه كان قليل الضبط والتحرى فى الشئون التفصيلية ، وأنه أجاز قصصاً كثيرة لا قيمة لها ، وأنه كان يتبع هواه فيما ينبغى أن يقصد فيه وجه الحق ، وأنه كان يقول فى هدوء واطمئنان : « كل ما أشبه الحق فى الشؤون القديمة ينبغى أن يعتبر حقا » . وقد أباح لنفسه حرية التحدث على لسان شخصياته البارزة ، فالحاجة عنده

(١) Livy

(٢) Treitschke (١٨٣٤ — ١٨٩٦) مؤرخ وأستاذ وكاتب سياسى ألمانى ، وضع كتابا مطولا فى تاريخ ألمانيا فى القرن التاسع عشر وصل فيه إلى عام ١٨٤٧ فقط . وقد اشتهر فى تاريخه بنزعته الوطنية القوية .

أم الاختراع .

ثم جاء من بعد ليفى بمائة سنة تاسيت[1] آخر كبار المؤرخين من الرومان ، وأشهرهم على الإطلاق من حيث اللغة والبيان (٥٥ م — حوالى ١١٧م) ، كان تاسيت زوجا لابنة أجريكولا[2] فاتح شمال بريطانيا ، وكان قنصلا ، وكان كثير التردد على البلاط الإمبراطورى ، ومع ذلك لم يخامره شك فى تدهور أخلاق الرومان . لقد صور فى حولياته بألوان بشعة ثابتة ، ما كان يقع فى قصور طيبريوس ونيرون من ضروب التهتك ، والبغى ، والقساوة ، والغدر ؛ ثم قابل بين ذلك كله و بين السذاجة والمزايا التى كان يتحلى بها متبربرة التيوتونيين النازلين بغابات جرمانيا والذين كانوا حديثى عهد بالاتصال بالإمبراطورية الرومانية . لا مراء فى أن تاسيت كان أخلاقيا أكثر منه مؤرخاً علميا ، وأنه اتخذ من التاريخ — كما اتخذ يوفنال[3] من الشعر — سوطاً صبه على المجان المنحلين الذين كانوا يتقلدون مناصب الدولة الكبرى فى الفترة الوسيطة من حياته .

ومن الأمور التى نبهت تاسيت إلى انحطاط الرومان ذيوع العبادة المسيحية فيهم . لم يكن تاسيت طبعاً بالرجل الذى يستطيع فهم ذلك الدين الجديد ، فإنه عندما رآه ينتشر بين طبقات الأرقاء والغرباء عده أقل من أن ينزل إلى بحثه والتفكير فيه . فلما رآه يفضى بمعتنقيه إلى الامتناع من

(١) Tacitus

(٢) Agricola (٣٧ — ٩٣ م) قائد رومانى اشتهر بفتوحه فى بريطانيا

(٣) Juvenal شاعر لاتينى هجاء (٤٢ — ١٢٥ م) ضمن أهاجيه القوية سخطه على ما فشا فى المجتمع الرومانى لعهده من الرذائل والمنكرات

الخدمة العسكرية ، والانسحاب من الحياة الاجتماعية ، ورفض العبادة التكريمية للإمبراطور ، لم يتحاش أن يعلن أن النصارى « أعداء الجنس الإنسانى » . إلا أن الدين الجديد على الرغم مما لقيه من عقلاء هذه العاجلة من تحقير وزراية ، وعلى الرغم مما ناله من ذوى العظمة الموقوتة من عدوان واقع ، جعل يمتد رواقه حتى لم يجد الإمبراطور الرومانى نفسه فى القرن الرابع بدا من أن يدخل فيه و يعلن أنه حامى حمى الكنيسة وكبير أساقفتها .

لقد كان لتنصر قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧ م) وظهور الكنيسة المسيحية على الوثنية الرومانية فى حدود القرن الرابع الميلادى أثر عميق فى فن التأريخ ، فقد تحول إلى أيدى القساوسة والرهبان و بقى فيهم طوال العصر الوسيط ، أى زهاء ألف سنة من الزمان . وكان من وراء ذلك أن غدا التاريخ خاضعاً اللاهوت مسخراً له ، وأنه أصبح عملياً تعليمياً وهو ما لم يكنه قط من قبل ، وأنه فقد كل صفة علمية كان يتصف بها وأصبح لا يكترث بحال لما هو حق أو محتمل الوقوع ، وأنه غدا مشحوناً بأخبار الخوارق والكرامات غير معنى إلا بما له صلة بالدين ، وأنه فقد حاسة النظر إلى الأشياء موضوعة فى مواضعها ، فوضع العبرانيين فى صدر درامة الزمان ورد دول العالم القديم إلى المؤخرة أو إلى الجانبين . وجملة القول إن تحول التأريخ إلى رجال الدين كان معناه محو التاريخ الصحيح من الوجود محواً دام ألف عام . ثم حدث بعد ذلك أن تصدعت الوحدة الرائعة التى شملت العالم الرومانى ، واستقرت القبائل الهمجية البدائية الثقافة والنزاعة إلى الحرب فيما كان من قبل مدنا للدولة الرومانية ، وحلت الحروب المتصلة

بين القبائل المذكورة محل السلم الرومانى ، ودرست معالم المدنية من الغرب أو كادت فلم يبق منها إلا ما أمكن استبقاؤه فى الأديرة والكنائس حيث ظلت أثارة من التاريخ تدرس وتدون . نذكر من ذلك على سبيل المثال : تاريخ أفريقانوس[١] (٢٢١ م) ، وأوزبيوس[٢] (حوالى ٣٤٠ م) ، وجيروم[٣] (حوالى ٤٠٠ م) ، فقد ضربت حول التاريخ نطاقاً جامداً من التوقيت الخرافى لم يستطع التاريخ حتى يومنا هذا أن يتحرر منه (كما راجعه وجدده سكاليجر[٤] عام ١٥٨٣ وأشر[٥] عام ١٦٥٠) . ثم إن « الكتب التاريخية السبعة المؤلفة فى الرد على الوثنيين[٦] » لبولس هروشيوس[٧] ، ليست إلا ركاماً من الأساطير القائمة على التحيز والهوى . وقد ظلت المرجع المعتمد فى التاريخ الزمنى من القرن الخامس إلى القرن

(١) Africanus رحالة ومؤرخ ليبى المولد . عاش فى القرن الثالث الميلادى . كتب تاريخا للعالم من الخليقة إلى عام ٢٢١ م ، وقد ضاع إلا نبذاً مضمنة فى تاريخ أوزبيوس

(٢) Eusebius (٢٦٧ — ٣٤٠) أسقف قيسارية ويعتبر مؤسس التاريخ الكنسى

(٣) Jerome (٣٣١ — ٤٢٠) مؤسس الكنيسة اللاتينية ومترجم الانجيل إلى اللغة اللاتينية الترجمة المعروفة بالفلجات

(٤) Scaliger (١٥٤٠ — ١٦٠٩) عالم إيطالى سيترجم له فى مناسبة آتية

(٥) Usher (١٥٨٠ — ١٦٥٦) أسقف إرلندى ، وقت الحوادث الواردة فى الإنجيل توقيتا ظهر خطؤه بعد

(٦) Septem Libri Historiarum adversus Paganos

(٧) Paulus Orosius مؤرخ ولاهوتى إسبانى . عاش فى القرن الخامس الميلادى ، وكان تلميذا للقديس أغسطين الآتى ذكره فى المتن . ومنه استمد مؤرخنا ابن خلدون كثير من أخبار الروم فى الجزء الثانى من تاريخه

الخامس عشر ، إذ قام فلافيوس بلندس[١] فقذفها بنقده الهادم إلى حيث تطرح القمامات وسقط المتاع

غير أنه إذا كان المنهج الذى انتهجه آباء الكنيسة فى التأريخ قد قضى على علم التاريخ ، فإنه على سبيل التعويض عن ذلك كان المنشئ لفلسفة التاريخ ، ذلك بأن أوهام هؤلاء الآباء عن مجرى حوادث هذا العالم السفلى قد أدتهم على غرابتها إلى إنعام النظر فى أحداث التاريخ وعرضها كلاً غير متجزئ . فلحظوا فى سير الإنسانية من جنة عدن إلى أورشليم الجديدة ، أو من هبوط آدم من الجنة إلى الفداء الذى تحمله المسيح ، وحدة كاملة من حيث الأصول الدرامية . وبذلك فكوا عن التاريخ قيود الزمان والمكان ، واعتبروه سجلا حافظاً لأفعال الإله نحو الإنسان ، وكسوه بذلك تجلة ووقاراً لم يعرفهما من قبل . لقد كان « تاريخ الكنيسة » لأوزبيوس (٣٢٤ م) فتحاً جديداً فى عالم التأليف ، إذ كان أول محاولة لوضع تاريخ للحضارة . وكذلك كان كتاب « مدينة الله » الذى وضعه سنت أغسطين[٢] (٤٢٦ م) والمعدود من الكتب البارزة فى آداب العالم ، أول محاولة لوضع خلاصة وافية لفلسفة التاريخ . على أنها محاولة لم تكن موفقة إلى حد بعيد ، فالكتاب لا يحوى فلسفة ولا تاريخاً

(١) Flavius Blondus (١٣٨٨ — ١٤٦٣) مؤرخ إيطالى نقاد له عدة مؤلفات فى التاريخ الرومانى

(٢) St. Augustine (٣٥٤ — ٤٣٠ م) أشهر آباء الكنيسة اللاتينية ، ولد فى قرية بأفريقية وتعلم فى قرطجنة . ثم صار أسقفا لكنيسة هبو Hippo بأفريقية ، وله تآليف كثيرة أشهرها كتابه « مدينة الله » Civitas Dei

ولـكن مجرد لاهوت وقصص ، ومع ذلك فهو ثمرة مجهود جليل قام به خيال ذلك القديس . فلـكى يرد أغسطين على القائلين بأن استيلاء القوط على رومية عام ٤١٠ م ، إنما كان لتخلى الرومان عن آلهتهم القديمة التى فى كنفها ورعايتها علا شأن رومية ، أنشأ يستعرض الشؤون العامة البشرية والإلهية ، منذ طرد إبليس من الجنة إلى يوم الحساب الأخير . وكل ما أورده عن « دول الشيطان (١) » ، أو الدول الوثنية الأربع المتتابعة : آشور ، وفارس ، ومقدونية ، ورومية ، إنما هو مجرد مسخ للحقيقة وتخليط لضروب شتى من اللغو والقول السخيف . ثم إن تفلسفه يرد البشر مجرد لعب كلعب الصبيان ، أو مجرد بيادق لا حيلة لها فى اللعبة الرهيبة الدائرة رحاها بين الإله والشيطان على رقعة اللانهائية وخلال آماد الأبدية . ومع ذلك كله ظل تصور أغسطين للتاريخ والفلسفة سائداً طوال الألف سنة التى تتألف منهـا العصور الوسطى ، ولم يكن فى سيادته تلك إلا كابوساً جاثماً على العقول والأفـكار

أما وقد ابتدئت العصور الوسطى بهذه البداية الموفقة ، فإنها أخذت بعد كفايتها من التاريخ الزمنى عن أغسطين وهروشيوس ، كما أخذت حاجتها من التاريخ الـكنسى الذى اعتبر صالحاً لها عن أوز بيوس ومن ذيلوا عليه أمثال سقراط ، وسوزومين وتيودورت (٢) ، وكسيودوراس (٣)

(١) Civitae Diaboli

(٢) Theodoret, Sozomen ، socrates وهم من مؤرخى الـكنيسة الشرقية فى القرن الخامس الميلادى

(٣) Cassiodoras (٤٦٨ — ٥٦٢) كاتب وسياسى لاتينى

أما الشىء المبتكر الذى استفاده التاريخ من العصور الوسطى ، فكان من طراز يختلف جد الاختلاف عما ذكر . كان بصـفة مبدئية عبارة عن شيئين: **حوليات** (١) ، **وتآريخ** (٢) . أما « **الحوليات** » فكانت شديدة الشبه بنظائرها القديمة عند قدماء المصريين والبابليين . كانت مجرد تقييدات للحوادث المعاصرة يعلق بها على التقاويم الموقتة لعيد الفصح . وكثير من الحوادث الواردة فى حوليات العصور الوسطى ولا سيما أوائلها ، من أتفه ما يكون ، فهو من قبيل الزلازل ، والخوارق ، وتداول المخلفات المقدسة ونتاج خنازير سداسية القوائم ، وماأشبه ذلك . ثم أخذت هذه التقييدات ترتقى شيئاً فشيئاً حتى أصبحت فى أواخر العصور الوسطى سجلات نفيسة لأحداث التاريخ . من هذا القبيل حوليات روجر الهوفدنى (٣) المعروفة بـ « حوليات كولونيا الـكبرى » (٤) وأما « **التآريخ** » فكان الغرض منها تلخيص تاريخ العالم منذ الخليقة إلى وقت تدوينها . ويقتصر القسم الأول منهـا فى توقيت الحوادث على نقـل مفتريات أوز بيوس . أما أقسامها الأخـيرة التى تتناول ذكر حوادث أيامها فتسـتمد من مصادر أصح من المصدر المذكور وتصبح بالتدريج مؤلفات لا يجد الإنسان بأساً بتسميتها « تاريخاً » . نورد على سبيل المثال بعض أشهر وأنفس « التآريخ » التى

(١) Annals

(٢) Chronicles

(٣) Roger of Hoveden مؤرخ إنجليزى ، كتب تأريخاً لبلاده وصل فيه إلى عام وفاته (١٢٠١) ويمتاز بأهمية ما كتب فيه عن السنوات التسع الأخيرة

(٤) Greater Annals of Cologne

ظهرت فى أواخر العصور الوسطى . ففى فرنسا ظهر « تأريخ نانت »[١] (إلى عام ١٠٤٩ م) وفى ألمانيا ظهر « التأريخ الأنجلوسكسونى »[٢] (حتى عام ١١٥٤) و « تأريخ أوتو الفريزنجى[٣] » (حتى عام ١٢٥٨) وفى انجلترا ظهر « التأريخ الأكبر » لماتيو باريس[٤] (حتى عام ١٢٥٥) . ثم أخذ الكتاب فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر يعدلون عن الشكل الحولى ويقتصدون فى ذكر المعجزات والكرامات ويتوخون أسلوب القصة المنسوقة . وأصلح ما يتمثل به للتآليف التى نحا أصحابها هذا النحو « تآريخ » فرواسّار[٥] (١٣٣٧ — ١٤١٠) الشهيرة الممتعة ، و « مذكرات » فيليب[٦] ده كومّين (١٤٤٥ — ١٥٠٩) التى لا تقل عن « تآريخ » فرواسّار جاذبية وإن كانت تفوقها كثيراً من حيث الصفة العلمية

(١) Chronicle of Nantes

(٢) Anglo-Saxon Chronicle

(٣) Otto of Freising (١١١٤ — ١١٥٨) أسقف ومؤرخ ألمانى ، اشترك فى الحرب الصليبية التى قادها ملك ألمانيا كنراد الثالث ، ثم عاد إلى بڤاريا عام ١١٤٩ وقد نحا فى تأريخه منحى أغسطين وهيروشوس فى تاريخهما

(٤) Matthew of Paris (١٢٥٩ — ؟) مؤرخ وراهب إنجليزى اشتهر فى تأريخه برواية الحوادث المعاصرة له عمن شهدها أو اشترك فيها ، وقد عرف بتنوع مدوناته ، فكان يعنى بتسجيل ما يصل إليه من أخبار العالم المتمدن لوقته فى الغرب والشرق .

(٥) Froissart مؤرخ فرنسى يمتاز تاريخه من عام ١٣٢٥ إلى ١٤٠٠ برشاقة الأسلوب وبساطته

(٦) Philippe de Commines مؤرخ فرنسى يعرف بأبى التأريخ الحديث تقلب فى كثير من المناصب السياسية ، وفى أواخر حياته كتب مذكراته Memoirs وتعتبر من عيون التواريخ بما اشتملت عليه من بلاغة الوصف ، وصحة الحكم ، والقدرة على فهم الوقائع

ربما كان التقدم الملحوظ فى تآريخ العهد الأخير من العصور الوسطى ناشئاً إلى حد بعيد من تأثير الحضارة العربية التى شملت العالم الإسلامى فى ذلك الزمان . لقد تماست النصرانية والإسلام فى الأرض المقدسة وما يجاورها ، وفى صقلية وجنوبى إيطاليا والأندلس ؛ ولم يكن هذا التماس بحال من الأحوال عدائياً لا فى جملته ولا فى نفس الأساس الذى قام عليه . فكما أن بلْعام[١] خرج ليدعو على بنى إسرائيل فإذا به يدعو لهم ، فكذلك الصليبيون ، خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عند ما رأوا « الكفار » ، الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم ، على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما . ففى مجال التأريخ الذى نحن بصدد الكلام عليه وحده ، نجد المسعودى العربى[٢] (؟ — ٩٥٦) يعرض فى كتابه « مروج الذهب » عرض خبير ماهر تاريخ وإثنغرافية غرب آسيا وشمال

(١) هو بلعام بن باعوراء ، وتلخيص قصته على ما جاء فى كتاب (عرائس المجالس) أنه كان رجلا من الكنعانيين من مدينة بلقاء ، مدينة الجبارين ، وكان مجاب الدعوة . فلما قصد موسى وقومه من بنى إسرائيل مدينة الجبارين أتى الكنعانيون إلى بلعام وسألوه أن يدعو على بنى إسرائيل فآمر ربه فنهاه عن أن يفعل . ولكن الكنعانيين ما زالوا به حتى فتنوه فدعا عليهم . فكان لا يدعو على بنى إسرائيل بشر إلا أصاب الكنعانيين ولا يدعو للكنعانيين بخير إلا أصاب بنى إسرائيل

(٢) of Arabia هو على بن الحسين بن على المسعودى (؟ — ٣٤٦ هـ) يتصل نسبه بعبد الله بن مسعود الصحابى المعروف ، وهو من كبار مؤرخى القرن الرابع الهجرى . صنف كتبا كثيرة فى التاريخ والجغرافية ، بقى منها وطبع كتابان « مروج الذهب » « والتنبيه والأشراف » وقد نسبه المؤلف إلى بلاد العرب والأصح أن يقال إنه عراقى بغدادى

أفريقية وشرق أوربا . ونجد ابن خلكان الدمشقى (١٢١١ — ١٢٨٢) يصنف معجماً[1] فى التراجم التاريخية جديراً بأن يقرن إلى « تراجم فلوطرخ[2] » . ثم نجد شيخ مؤرخى العرب عبد الرحمن بن خلدون التونسى[3] (١٣٣٢ — ١٤٠٦ م) قد كتب فيما كتب مقدمة لتاريخ عام بلغت من سعة الإحاطة ، وصحة النظر ، وعمق الفلسفة ، ما جعلها مصداقا لما قال الأستاذ فلنت[4] فى حق ذلك العالم التونسى الكبير من أنه « واضع علم التاريخ »

---

(١) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان البرمكى . ولد بأربل عام ٦٠٨ هـ وتوفى بدمشق عام ٦٨١ هـ ولى التدريس وقضاء القضاة بمصر والشام وكتابه « وفيات الأعيان » كتاب جليل مشهور (المترجم)

وقد بلغ من نفاسته تأليفا وموضوعا أن وجد بعد ستمائة سنة من وضعه أهلا للترجمة إلى الانجليزية . انظر : Ibn Khallikan's Biograpnical Dictionary. M. Slane· 4 Vols·_(1842 — 1871) (المؤلف)

(٢) Parallel Lives of Plutarch وفلوطرخ (٤٥ ؟ — ١٢٥ م) مؤرخ وأخلاق يونانى ، وكتابه المذكور فى المتن معدود من الكتب البارزة فى آداب العالم وهو عبارة عن تراجم مشهورى اليونان والرومان

(٣) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) ولد وتعلم بتونس ثم اتصل بملوك أفريقية الشمالية والأندلس لعهده وولى لبعضهم أعمالا أفادته خبرة عملية بالسياسة ، ثم رحل إلى مصر وولى بها التدريس فى الجامع الأزهر وقضاء المالكية ، وخرج مع السلطان الناصر إلى الشام لحرب تيمورلنك ، ثم عاد إلى القاهرة حيث توفى عام ٨٠٨ . وأعظم آثاره تاريخه المشهور الذى يمتاز بمقدمته الفلسفية الرائعة وبالقسم الخاص بتاريخ البربر (المترجم)

راجع الفصل النفيس الذى عقده ر . فلنت لابن خلدون وتاريخه فى كتاب « تاريخ فلسفة التاريخ » (١٨٩٣) ص ١٥٧ — ١٧١ (المؤلف)

(٤) R. Flint (١٨٣٨ — ١٩١٠) فيلسوف وعالم باللاهوت انجليزى . كتب عدة كتب فى الدين والفلسفة أهمها « تاريخ فلسفة التاريخ » History of the Philosophy of History

انتقل أثر هذه الثقافة العربية إلى أوربا النصرانية من طريق مدارس الأندلس وجنوب إيطاليا ، فكان من العوامل القوية فى انتهاء العصور الوسطى وانبثاق فجر العصور الحديثة . وهناك عوامل أخرى ساعدت على بلوغ هذه الغاية ؛ بعضها جاء من الشرق الأقصى بواسطة المسالك التجارية التى كشفتها فتوح جنكزخان (١١٦٢ — ١٢٢٧) وخلفائه ، وكان عبارة عن ثلاثة أمور :

(١) فن الطباعة وكان فيه القضاء الأخير على احتكار رجال الدين للعلم .

(٢) استعمال بيت الإبرة فى الملاحة ، وقد يسر القيام برحلات الاستكشاف الكبرى .

(٣) ثم اختراع البارود ، وقد أحدث فى صناعة الحرب انقلاباً قضى على ما كان للفروسية الإقطاعية من سيادة عسكرية . لا جرم أن المائة سنة التى ابتدأت من عام ١٤٥٠ ، وانتهت فى عام ١٥٥٠ ، كانت عصر الانتقال العظيم

الفصل الثالث

إلمامة بالتاريخ عند العرب

التاريخ عند العرب لغة واصطلاحا — التاريخ فى الجاهلية — التاريخ من حيث هو فرع من علم الحديث — أخباريو القرن الثانى — مؤرخو القرن الثالث — مؤرخو العرب من بعد القرن الثالث — الطريقة العلمية لمؤرخى العرب — جملة القول فى مؤرخى العرب

يقول مترجم الكتاب لقد نوه المؤلف فى الفصل المتقدم بعلم التاريخ عند العرب دون أن يخصه بكلمة مفصلة ، فإتماما للفائدة نعقد هذا الفصل فى معنى التاريخ ونشأته وتطوره عند العرب ، ملتزمين فيه طريقة المؤلف من الإيجاز والتعميم فنقول :

التأريخ بالهمز ، والتاريخ بتسهيل الهمز ، والتوريخ ، تعريف الوقت . وهو لفظ عربى أصيل ، وقيل دخيل مأخوذ من أصل سريانى معناه (الشهر) ؛ وكانوا قبل الإسلام يوقتون بالنجوم والأهلة وينسأون الشهور ويكبسونها إلحاقاً للسنة القمرية بالسنة الشمسية ؛ وكانوا يبنون التأريخ على الليالى دون الأيام بخلاف العجم ، فإنهم كانوا يبنونه على الأيام دون الليالى ؛ وكانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء الكعبة ونحوها . فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب أمر عمر الناس فأرخوا من عام الهجرة ، ومضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا .

هذا فى أصل وضع اللفظ وما يجرى مجراه ؛ أما فى الاصطلاح فالتاريخ عندهم فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها ؛ وموضوعه الإنسان والزمان[١] ، وهو على هذا المعنى قديم عندهم ، نما معرفة ساذجة من معارف العرب قبل الإسلام ، ثم تكمل على الزمن حتى أصبح علماً من أجل علومهم وأعظمها شأناً . فعرب الجاهلية كانوا لغلبة الأمية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم من طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار متفرقة ، ويستثنى من تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة وخاصة أهل اليمن والحيرة ، فقد نقش الأولون بالخط المسند على مبانيهم لمماً من أخبار ملوكهم وشؤونهم العامة ؛ ودون الآخرون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديار الحيرة وكنائسها[٢]

فلما جاء الإسلام ، وقامت الدولة العربية ، ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وأحواله استقصاء للسنة ، توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب فى الإسلام بالتاريخ . على أن التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعاً من أنواع الحديث . وأقدم من كتب فى السيرة عروة بن الزبير بن العوام المتوفى عام ٩٣ﻫ ، وأبان ابن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥ ﻫ ، ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ﻫ . ثم انتهى علم السيرة والمغازى إلى رجلين من الموالى هما محمد ابن إسحاق المتوفى عام ١٥٢ ﻫ ، وقد اختصر سيرته ابن هشام المتوفى عام

(١) كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسخاوى ص ٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٧ .

٢١٨ هـ ، ومختصره هذا هو الذى بأيدى الناس اليوم ؛ ثم محمد بن عمر الواقدى المتوفى عام ٢٠٧ . وكثير من روايته مضمن فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ ؛ هذا إلى كتاب له فى مغازى الرسول مطبوع متداول[١] .

* * *

وفى أثناء ذلك كانت قد تمت الفتوح العربية ، ووقعت الفتن العظمى ، ونبض عرق العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة والديانات غير الإسلامية على أيدى رجال مثل كعب الأحبار المتوفى عام ٣٤ هـ (؟) وعبيد بن شرية المتوفى حوالى عام ٧٠ هـ ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ هـ . فتوافرت أسباب شتى اقتضت جمع الأخبار المتصلة بكل ذلك وتدوينها ؛ فتدوين أخبار القدماء مثلا دعت إليه جملة دواع ، منها رغبة العلماء فى فهم إشارات إلى الأمم الغابرة وردت فى الكتاب والسنة ، ومنها ميل بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور إلى الاطلاع على سياسات الملوك ومكايدهم ؛ هذا فضلا عن حرص الموالى على التنويه بمجد بلادهم القديم . ثم إن تدوين الأنساب وأيام العرب كان مطاوعة لحاجة الشعراء إليها عامة فى مقام الفخر والهجاء ، وحاجة الدولة للأنساب خاصة للاستعانة بها فى تقدير العطاء للجند . وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاة الأمور فى معرفة ما فتح من البلدان صلحاً ، وما فتح

(١) انظر « ضحى الإسلام » جـ ٢ ص ٣٠٩ — ٣٢٩ وبحث الأستاذ هوروفتز فى سير النبى الأولى ومؤلفيها :
The Earliest Biographies of the Prephet and their Authors.

عنوة ، وما فتح بعهد ، لأن لكل حكما خاصا من حيث الجزية والخراج .

فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الإسلام . وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ « الأخبار » وعلى المتخصص فى روايته « الأخبارى » كما عرف المتخصص فى رواية الحديث « بالمحدث » . ونلحظ النقلة من الحديث إلى الأخبار فى رجال خواص منهم ابن إسحق والواقدى المتقدما الذكر ، والمدائنى المتوفى عام ٢٢٥ هـ ، فكل كان محدثاً وأخباريا معا . كما نلحظ بداية التخصص فى الأخبار فى مثل محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦ هـ ، وكان مقدماً فى علم الأنساب ، وعوانة بن الحكم المتوفى عام ١٤٧ ، وقد جمع أخبار بنى أمية ، وأبى مخنف المتوفى عام ١٥٧ وله كتب فى الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج ، وسيف بن عمر المتوفى عام ١٧٠ ، وله كتاب كبير فى الفتوح ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ٢٠٤ ، وله فى أخبار الأوائل وأيام العرب وأنسابهم وأخبار الإسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم فى كتاب الفهرست ، وقد طبع منها حديثاً « كتاب الأصنام » .

ووجد فى تلك المرحلة نوع من التخصص المحلى فى رواية الأخبار ، فكان لكل قطر من الأقطار الإسلامية الهامة أخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها . قال ابن النديم[١] : « قالت العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره ، والمدائنى بأمر خراسان والهند

(١) الفهرست ص ١٣٧ .

الدولة الإسلامية . ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل الرابع يلحظ الباحث زيادة جوهرية فى المادة التاريخية ودقة وتحرراً فى مصادرها . فقد استقرت دواوين الدولة العباسية وتمهدت قواعدها ولاسيما دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد ، وأمكن المشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا بها فى صناعتهم ، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث ، من عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات ومدد ولاية كبار الدولة من وزارة وقواد وعمال وقضاة وولاة لمواسم الحج ووصف الحروب الداخلية ووقائع الغزو على الحدود صيفاً وشتاء وغير ذلك . ثم إنه فى العصر المذكور قويت حركة النقل عن اللغات الأجنبية كالفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية . وقد بدأت هذه الحركة من حيث التاريخ بترجمة ابن المقفع عن الفارسية حوالى عام ١٤٠ لكتابى خدينامه وآيينامه فى تاريخ الفرس وأحوالهم[١] . ومن هذا القبيل عهد أردشير[٢] الذى ترجمه إلى العربية البلاذرى المتوفى عام ٢٧٩ ، ومنه أيضاً ترجمة تاريخ هيروشيوس وإن كان ذلك قد تم بالأندلس حوالى منتصف القرن الرابع[٣] . ثم إن سهولة التنقل بين أنحاء الدولة الإسلامية حملت كثيراً من طلاب العلم والمؤرخين خاصة على الرحلة فى طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ ، ولرؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها ، فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشافهة والمشاهدة . وعلى الجملة فإن مؤرخى القرن الثالث

(١) الفهرست ص ١٧٢ .
(٢) « ص ١٦٤ .
(٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ١٩٧ .

وفارس ، والواقدى بأمر الحجاز والسيرة . وقد اشتركوا فى فتوح الشام»

على أن المحدث كان عند جمهور ذلك الزمان أشرف موضوعاً وأسمى منزلة من الأخبارى ؛ ويرجع ذلك إلى شرف موضوع الحديث من جهة وإلى أن الأخبار وخصوصاً قديمها كانت مظنة الإغراب والتلفيق والاختلاق من جهة أخرى . ولقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يضعفون المحدث إذا مال إلى الأخبار ، فقد ضعفوا محمد بن إسحق ، وكان أصلا راوية للحديث ، ثم صار يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم أهل العلم الأول . وربما لم يستحسنوا للفقيه المختص باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة أن يتوفر على طلب الأخبار . روى ابن خلكان[١] «أن أبا يوسف كان يحفظ المغازى وأيام العرب ، وأنه مضى ليستمع المغازى من محمد بن إسحق أو غيره وأخل بمجلس أبى حنيفة ، فلما أتاه قال له أبو حنيفة : يا أبا يوسف ! من كان صاحب راية جالوت ؟ فقال له أبو يوسف : إنك إمام ؛ وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولا ، وقعة بدر أو أحد ، فإنك لا تدرى أيهما كان قبل الآخر ، فأمسك عنه »

* * *

وجملة القول إن أهل السيرة والأخبار قد رسموا فى أواخر القرن الثانى الأبواب الأساسية للتاريخ عند العرب ، وهى لا تعدو أموراً أربعة : (١) أخبار الماضين (٢) أحوال العرب قبل الإسلام (٣) السيرة (٤) أخبار

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٥٢ .

حددوا بصفة عامة مصادر التاريخ عند العرب فكانت أربعة أشياء (١) كتب السيرة والأخبار (٢) السجلات الرسميه (٣) الكتب المنقولة عن اللغة الأجنبية (٤) المشاهدة والمشافهة .

و بتعاظم المادة التاريخية وتحرر مصادرها بالقياس إلى ما كانت عليه الحال من قبل لم ير كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء بأساً بالتوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه ؛ ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأناً ، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية كرجال لهم خطرهم فى الحياة العامة سياسية كانت أو عقلية أو أدبية . وتضاءل مدلول لفظ الأخبارى حتى أصبح كما فسره بعد السمعانى المتوفى عام ٥٦٢ بقوله : «ويقال لمن يروى الحكايات والقصص والنوادر الأخبارى »[1] نذكر من بين مؤرخى القرن الثالث ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف وقد توفى عام ٢٧٠ ، والبلاذرى صاحب كتابى فتوح البلدان وأنساب الأشراف ، وقد توفى عام ٢٧٩ ، واليعقوبى صاحب التاريخ المضاف إليه وقد توفى عام ٢٨٤ ، والدينورى صاحب الأخبار الطوال والمتوفى عام ٢٩٠ ، وابن جرير الطبرى صاحب تاريخ الأمم والملوك والمتوفى عام ٣١٠ هـ .

* * *

أخذت الوحدة السياسية التى انتظمت الدولة العباسية تتداعى من منتصف القرن الثالث . ولم تلبث تلك الدولة أن استحالت دويلات

(١) هذا النص دون مقام الاستشهاد به مأخوذ عن ضحى الإسلام ج ٢ ص ٣٥٦

متعددة يحكمها متغلبون مختلفو الأجناس فى مشارق الدولة ومغاربها ، وجرت اللامركزية السياسية إلى لامركزية أدبية ، فتوزعت الثقافة الإسلامية على الأمصار بعد أن كادت تكون مجموعة فى حاضرة الخلافة وحدها . ونافست بغدادَ قرطبةُ والقيروانُ ومصر وحلب وأصفهان وغزنة والرى وبلخ وغيرها ، وكثر العلماء فى الأمصار كثرة عظيمة . كل ذلك أثر فى كتابة التاريخ عند العرب تأثيراً كبيراً يتضح فى كثرة ما ظهر ابتداء من منتصف القرن الثالث من التواريخ المحلية وكتب التراجم والطبقات خاصة ؛ من ذلك تاريخ فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧ وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى المتوفى عام ٣٥٠ ، وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ ، وتاريخ دمشق وأعلامها لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ ، والبيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (القرن السابع) ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى (٦٢٦) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ) ، وكتابا الخطط والسلوك للمقريزى (٨٤٥) .
و إلى جانب ذلك ظلت سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبرى ، فوضع المسعودى المتوفى عام ٣٤٦ كتابيه مروج الذهب وأخبار الزمان ، وصنف ابن مسكويه (٤٢١) تجارب الأمم ، وابن الأثير (٦٣٠) كتابه الكامل ، وأبو الفداء (٧٣٢) كتابه المختصر فى أخبار البشر ، وابن خلدون (٨٠٨) تاريخه الكبير المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر .

واستتبع التفرق السياسى وهن القوة الذاتية للعالم الإسلامى فطمع

فيه أعداؤه من وراء الحدود واجترءوا عليه واستباحوا حماه ، وبدت مقدمات ذلك فى استئساد الروم وانتقاصهم شمالى الشام فى القرن الرابع ، ثم أغار الصليبيون فى القرنين الخامس والسادس على ملك المسلمين بالمغرب والمشرق ، ولم تكد تلك الغمة تنجلى عن مشرق العالم الإسلامى حتى كانت غارة التتار وهى الداهية الدهياء والطامة الكبرى ، فسقطت الخلافة العباسية ودمرت معالم الحضارة الإسلامية فى القارة الأسيوية تدميراً .

وفى أثناء ذلك كانت مدن الأندلس وكورها تتهاوى الواحدة تلو الأخرى فى أيدى الأسبان حتى انحصر ملك المسلمين بذلك القطر فى رقعة ضيقة من الأرض هى غرناطة وأحوازها ، وبذلك دخل العالم الإسلامى كله فى طور جديد من تاريخه يختلف عن الطور السابق عليه اختلافاً بعيداً .

واتضحت صروف الزمن وعبر التاريخ بعد تلك الأحداث الجسام والخطوب العظام ، فكان طبيعياً أن ينحو المؤرخ الإسلامى فى التاريخ تلقاء ذلك كله منحى فلسفياً عميقاً فيتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وعلل سقوطها ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك . وهذا ما صنعه فيلسوف مؤرخى العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ فى مقدمة تاريخه التى لم يكتب مثلها فى الإسلام على الإطلاق . ثم لم يلبث علم التاريخ أن نظر إليه على أنه يمكن أن يكون هو نفسه محلا للبحث والتاريخ ، فوضع فى ذلك الصفدى (٦٧٤) مقدمة كتابه « الوافى بالوفيات » والسخاوى المتوفى عام ٩٠٢ كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » .

فيرى القارئ مما تقدم أنه فيما بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ لابن خلدون ، وتاريخ التاريخ للسخاوى قد نما التاريخ عند العرب وتفرع وأزهر وأثمر ؛ فلما نضب معينه بانحلال الحياة الإسلامية العامة المستقرة جرى عليه ما يجرى على الأحياء من حكم البلى والفناء متى انقطعت مادة حياتها .

* * *

ذلك مجمل حال التاريخ عند العرب نشوءاً واكتمالا وهرماً وانقطاعاً ؛ أما من حيث الطريقة العلمية التى اتبعوها فالتاريخ ابتدأ عندهم كما رأينا فرعاً من علم الحديث ، فكان حريا أن يتأثر بطريقة المحدثين فى جمع الرواية التاريخية ونقدها ، فكان أهل السيرة والمغازى والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلى ، وهو عادة شخص عدل عندهم له علم مباشر بالواقعة المروية كأن يكون عاينها أو اشترك فيها كما كانت الحال فى رواية أخبار السيرة والإسلام ، أو أخذها من بعض مظانها ككتاب قديم ضاع ، أو من بعض أهل البادية ، وتلك كانت الحال فى رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الإسلام . فكان النقد عندهم ، أو الجرح والتعديل كما كانوا يسمونه ، ذاتياً منصباً على الرواة ، لا موضوعياً منصباً على المرويات . هذه الطريقة ضمنت لهم إلى حد بعيد صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخى من السيرة وحوادث الدولة الإسلامية ، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك فى أخبار القدماء والعرب قبل الإسلام والقسم الأول من السيرة . والحق إن هذه الموضوعات الأخيرة

أضعف نواحى كتب التاريخ عند العرب وأغمضها .

وإذا كان الإسناد عندهم أساس نقد الأخبار فقد كان أساس ضبطها هو التوقيت الدقيق لها بالسنين والشهور والأيام ، وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوربا فى العصور الوسطى . قال المؤرخ الإنجليزى (بكل)[١] « إن التوقيت على هـذا النحو لم يعرف فى أوربا قبل عام ١٥٩٧ » . على أن نظام التوقيت ابتدأ ضعيفاً عندهم ، فـكثير من حوادث الفتوح الأولى قد وقع فى توقيته خلط شديد واختلاف كثير ، ثم تـكمل على مر الزمن بتعدد طرق الخبر الواحد وبالأخذ عن المصادر الرسمية التى سبقت الإشارة إليها .

وقد اتبعوا طريقة علماء الحديث كذلك فى تدارس كتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها بالسند المتصل قراءة وسماعا وإجازة ؛ فـكتاب الأصنام مثلاً تتصل سلسلة روايته عن ابن الـكلبى من عام ٢٠١ إلى قريب من عام ٥٠٠ ، ومثل ذلك يقال فى مغازى الواقدى وكثير غيره من كتب التاريخ . وهى مبالغة محمودة فى المحافظة على النصوص التاريخية الهامة والـكتب المعتبرة أمهات وأصولا .

تلك طريقتهم فى جمع الرواية التاريخية ونقدها وضبطها ؛ أما عرضهم لها فأصحاب السيرة والمغازى والأخباريون الأوائل كانوا يجمعون الروايات ويرتبونها بحسب موضوعاتها رسائل أو كتباً تشبه أبواب الحديث . ثم جاء المؤرخون فسلـكوا فى عرض الحوادث طريقتين أولاهما وأقدمهما الترتيب على السنين بعد مقدمة فى التاريخ القديم يبدءونها عادة بذكر

(١) Buckle انظر كتاب Arabic Historians لمرجوليوث ص ١٧

الطوفان أو الخليقة نفسها ، ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط الهيثم بن عدى المتوفى عام ٢٠٧[١] ، ثم اتبعها من بعده الطبرى وابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء . والأخرى سوق الحوادث مساق القصة المنسوقة المرتبة على العهود ، وقد جرى عليها اليعقوبى والدينورى والمسعودى وابن خلدون وغيرهم . ويتصل بعرض الحوادث أسلوب أدائها وتصويرها : أما الأسلوب فـكان على وجه العموم عربياً سهلاً مبيناً ؛ وأما التصوير فـكان فيه وضوح وقوة وحياة كما فى أخبار العقود الأولى من تاريخ الطبرى وفى بعض فصول ابن مسكويه والصولى .

ويمكن تلخيص أوجه النقص فى طريقتهم فى أمور ثلاثة : (١) ضعف ملـكة النقد عندهم بوجه عام . (٢) إدارتهم التاريخ العام على الأفراد والحروب والسياسة فى أبسط صورها . (٣) عدم عنايتهم بالشؤون العامة للجماعات وتعليل الحوادث والنفاذ إلى أسرارها .

على أنه مهما قيل فى قصور طريقتهم من الناحية العلمية فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة يستطيع أن يتدارك فى صياغتها ما فاتهم ، وأن العلم الحديث يسجل لهم أنهم أول من ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت الـكامل ، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخى ونوعوا التآليف فيه وأكثروه إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخى الأمم الأخرى ، وأنهم أول من كتب فى فلسفة التاريخ والاجتماع وتاريخ التاريخ ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره ، وهو الصدق فى القول والنزاهة فى الحـكم .

(١) الفهرست ص ١٤٦

الفصل الرابع

إلمامة بالتاريخ والتأريخ

من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر

حقيقة الأمر فى نهضة الآداب القديمة — النهضة والتاريخ — مؤرخو عصر النهضة فى إيطاليا — مؤرخو عصر النهضة فى خارج إيطاليا — الفارق بين علماء النهضة فى شمال أوربا وعلمائها فى إيطاليا — أثر الصراع الدينى فى إذكاء البحث التاريخى — أثر الكشوف الجغرافية الكبرى والمشاكل الاجتماعية المترتبة عليها فى توسيع نطاق البحث التاريخى — أثر الخصومات الدستورية فى تنشيط البحث التاريخى — النزعة التعقلية والتاريخ فى القرن الثامن عشر — التاريخ إبان الثورة الفرنسية وتأثره بفلسفة روسو — المذهب الإبداعى وخصائصه — أشهر المؤرخين إبان قيام المذهب الإبداعى .

كانت نهضة الآداب القديمة أقوى مميز لفترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، ولم تكن فى حقيقة أمرها إلا ثورة ثارتها على الكنيسة وثنية إيطالية طال حبسها وكتمانها . ثم هى من بعض الوجوه كانت حركة رجوع وتقهقر معناها العود إلى دراسة اللغات البائدة ، وبعث الآداب المجفوة الدائرة ، وإحياء ضروب من الفلسفة ابتدعها الخيال . وكانت تعنى فوق كل ذلك هُوِىَّ الناس إلى مستويات أخلاقية واجتماعية أحط بشكل يرثى له من نظائرها التى بلغوها فى عصور التدين

والإيمان . ومع ذلك فلعل تلك النهضة كانت مرحلة لا مناص للعقل الغربى من اجتيازها وهو فى طريق التحرر من أغلاط الكنيسة التى ظل يرسف فيها (لمصلحة الكنيسة) مدى ألف عام ، وإلا فليت شعرى أى قوة غير قوة أفلاطون كان يمكنها أن تبطل سحر أكويناس ؟[1] ، وأى رجل غير يوليوس قيصر كان فى وسعه أن يزعزع سلطان هيلدبرند[2] وأى نفوذ دون نفوذ شيشرون[3] ، كان فى طاقته أن يتحدى أغسطين فى عليائه ؟

أما فى مجال التأريخ فنهضة الآداب القديمة كانت تعنى أموراً كثيرة : كانت تعنى أولاً صبغ التاريخ بالصبغة الزمنية ، وتحول تدوين شؤون الدولة من رجال الدين إلى العلمانيين ، والعدول عن الأساليب التأريخية على تفاوتها إلى كتابات من طراز يختلف عنها كل الاختلاف ، ككتابات يعزى فيها إلى حيل الدبلوماسيين المدبرة والاحتكام إلى السيف من حين لآخر ما كان يعزى من قبل إلى اعتراض المشيئة الإلهية حيناً وتدخل

---

(١) Thomas Aquinas (حوالى ١٢٢٥ — ١٢٧٤) فيلسوف دينى يعد أكبر فلاسفة العصور الوسطى ولا يضارعه فى التأثير فى الكنيسة الغربية من ناحية التفكير الدينى إلا أغسطين .

(٢) Hildebrand هو البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) وهو من أقوى الباباوات وأعظمهم شأناً . كانت جهوده محصورة فى رفع سلطة الكنيسة فوق السلطة الزمنية فى العالم المسيحى كله ، ومن جراء ذلك حدث بينه وبين هنرى الرابع ملك ألمانيا النزاع التاريخى المشهور .

(٣) Cicero ١٠٦ — ٤٣ ق . م أخطب خطباء الرومان ، ومن أكبر ساستهم ، وله مواقف خطابية وسياسية مشهودة فى الحوادث والفتن التى وقعت فى العهد الأخير من حياته .

القديسين أحيـاناً . وكانت من جهة ثانية تعنى غلواً فى الحط من شأن العصور الوسيطة كأن لم تـكن سوى عهود حرية مغلولة ولا تينية مرذولة ، وهو غلو كان يقابله غلو آخر فى تمجيد عصور الأدب القديم كأن قد شهدت بلوغ كل ما يصبو إليه العقل الإنسانى . وكانت تعنى من جهة ثالثة تقدماً واسع المدى فى أسلوب الإنشاء الأدبى ، وتهذيباً لمفردات اللغة اللاتينية واحتذاء لغرر الأدب فى العصر الأغسطى [١] ربما اشتد فجعل الـكاتب المتكلف للبلاغة عاجزاً عن التعبير عن الشىء الواضح بعبارة واضحة ، وحتى عن أن يؤدى إلى القارئ أى معنى مفهوم على الإطلاق . وكانت تعنى من جهة رابعة بعثا لمذهب التشاؤم الوثنى القائل بالحركات الدورية فى التاريخ (والمقابل لمذهب القائل بحركة واحدة مطردة مؤدية من جنة الأرض إلى جنة السماء) ، ورجوعاً إلى ما كانوا يتصورونه قبل النصرانية من حظ قلب وقضاء محتوم ، وعوداً إلى الفردية وتوكيد قيم الأشخاص دون الجماعات ، وهو من أظهر ما تمتاز به كتب القدماء من المؤرخين أمثال تيوسيديد وفلوطرخ . وأخيراً ، وفوق كل شىء فإنها كانت تعنى انبعاث روح نقاد جديد — بمعنى أن ما عرف عن الإغريق من ظمأ لا يروى إلى طلب المعرفة والبحث الحر قد عاد إلى الوجود ولـكن فى صورة جديدة . فإنه عند ما أثبت لورنزو ڤلا [٢] (١٤٠٦ — ١٤٥٧) بالدليل القاطع أن

(١) نسبة إلى أغسطس أول أباطرة الرومان ، والعصر المذكور يعتبر أزهى عصور الأدب الرومانى . فيه عاش ڤرجيل وهو رأس أكبر شعراء الرومان ، وليڤى المؤرخ وصنيق الفيلسوف .

(٢) Lorenzo Valla من علماء النهضة فى إيطاليا . ولد ونشأ فى رومية =

ما يعرف « بمنحة قسطنطين » وهى من الأسس التى تقوم عليهـا سلطة البابوات الزمنية ، إنمـا هو تزوير قبيح افتعل فى رومية نفسها فى زمن يتأخر نحو خمسة قرون عن التاريخ الوارد بها ، فقد أقام ذلك الدوائر الـكهنوتية وأقعدها . أما رسائله المتعلقة بنص ترجمة الـكتاب المقدس المعروفة بالفُلجات ، والتى أقلقت بال رجال الـكهنوت ، ومقالاته الهادمة التى كتبها فى نقد العقود الأولى من تاريخ ليڤى ، فـكانت أقل تأثيراً وإن كانت أدل على قوة ملـكة النقد عند ڤلا .

نورد على سبيل المثال من أعلام مؤرخى عصر النهضة فى إيطاليا إلى جانب لورنزو ڤلّا : (١) ليونردو برونى [١] (١٣٦٩ — ١٤٤٤) ، ويعتبر مؤلفه « تاريخ فلورنسا فى اثنى عشر كتاباً » أول مؤلف هام يحوى كل الخصائص البارزة للمدرسة الحديثة ، من صفة زمنية ، وحب للقديم ، وتعقل للأشـياء ، وعناية بالأفراد (٢) بودجو برتشوليني [٢] (١٣٨٠ — ١٤٩٥) وكان كاتب سر سبعة بابوات متتابعين . نتبين من كتابه « ثمانية كتب فى تاريخ فلورنسا » كيف كان التمسك بالأسلوب اللاتيني يطمس المعنى الإيطالى . (٣) فلاڤيو بلوندى الشهير بفلاڤيوس بلندوس [٣] (١٣٨٨ — ١٤٦٣) وهو أعظم علماء عصر النهضة . كتب

= ثم صار قسيساً فكاتب سر ألفونس الخامس صاحب أرغونة ، أشهر كتبه كتابه المسمى (منحة قسطنطين) Donation of Constantine وقد حوكم بسببه أمام محكمة تفتيش وكاد يفقد حياته لولا تدخل ألفونس السادس ، وهو بعد ناقد جرىء وكاتب لذاع الأسلوب وبعضهم يرى فيه ممهداً للوثر .

(١) Leonardo Bruni (٢) Poggio Bracciolini .

(٣) سبق التعريف به فى ص ٤١ .

عدة تآليف فى آثار الرومان ، كما كتب واحدا وثلاثين كتاباً فى تاريخ النصرانية ابتداء من سقوط الدولة الرومانية ، وقد أصبحت هذه الكتب أساساً لكل ما كتب بعد فى موضوعها . (٤) إينياس سلفيوس بيكولوميني (١) وهو الذى صار بعد البابا بيوس الثانى (١٤٠٥ — ١٤٦٤) وقد أفاده علمه الفذ بالسياسة وخبرته التى اكتسبها فى سياحته الواسعة النطاق فى وصف ألمانيا على عهد فردريك الثالث ، وبوهيميا إبان الحروب الهُسِّيَّة (٢) . ولكن أسمى من كل من ذكرنا ، وأصدق تمثيلا لمؤرخى عصر النهضة ، الكاتبان الفلورنسيان العظيمان المتحرران من جميع القيود (٥) نيكولو مكيافلى (٣) (١٤٦٩ — ١٥٢٧) و (٦) فرنسسكو جويشيرديني (٤) (١٤٨٣ — ١٥٤٠) فإنهما بوثنيتهما المحضة ، واحتقارهما

(١) Aeneas Sylvius Piccolomini أو Pope Pius II

(٢) The Hussite Wars ، كان مذهب المصلح الدينى الإنجليزى ويكليف قد تأدى إلى ألمانيا ودعا إليه فيها أستاذ بجامعة براغ اسمه جون هس ، لكن مجمع كونستانس قضى بفساد المذهب المذكور وحوكم هس وأعدم إحراقا بالنار (١٤١٥) فثار أتباعه فى بوهيميا ثورة عنيفة فحوربوا وأبيد المتطرفون منهم وصولح المعتدلون آخر الأمر (١٤٣٣)

(٣) Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ — ١٥٢٧) سياسى وكاتب إيطالى ، ولد وعاش فى فلورنسا ، وقد تقلب فى كثير من المناصب السياسية والعسكرية فى فلورنسا ، وساح فى أوربا ، واكتسب خبرة واسعة بسياسة الجمهوريات الإيطالية وأوربا لعهده وكانت تنطوى على كثير من أساليب الدس والاستهانة بالحقوق الدولية ، ثم صاغ خلاصة تجاربه فى كتابه (الأمير) Il Principe وقد رسم فيه كيف يستطيع أمير مستبد قوى جرىء أن يوحد إيطاليا ويجعل منها دولة عظيمة . وخلاصة فلسفته السياسية أن : الغاية تبرر الواسطة ، وقد تأثر بفلسفته ساسة أوربا الحديثة بوجه عام .

(٤) Francesco Guicciardini سياسى ومؤرخ إيطالى تتضح سياسته فى بغضه للبابوية وولائه لآل مديشى . وقد انصرف فى أواخر حياته إلى كتابة تاريخ لإيطاليا من عام ١٤٩٤ إلى عام ١٥٣٢ وقد ظهرت كفايته كمؤرخ مستقل وناقد قدير فى ذلك التاريخ الذى يعد من أعظم ما كتب فى التاريخ الحديث .

للعصور الوسطى ، ومقتهما للبابوية ، وانغماسهما فى لجة السياسة ، وإخلاصهما لوطنهما ، وبراعتهما فى القصص ، يمثلان منتهى ما وصل إليه التأريخ زمن النهضة .

أما فى خارج إيطاليا ، فإن حركة النهضة جعلت تنتشر ويمتد رواقها شيئاً فشيئاً حتى كان أغلب ممالك أوربا قد شهد قبل انتصاف القرن السادس عشر مؤرخين من الطراز الجديد ، من بين متظاهر بالدين مثل بيكولوميني ، أو مجاهر بالوثنية مثل ماكياڤلى . ونكتفى فى هذا المقام بذكر بعضهم على سبيل المثال ، فمن أقدمهم وأفضلهم بوليدور ڤرجيل (١) (١٤٧٠ — ١٥٥٥) وهو إيطالى من رجال الكنيسة ، أقام فى إنجلترا وكتب بها « تاريخ إنجلترا على عهد هنرى السابع » ، الذى ظل نموذجاً لكل من جاء بعده من مؤرخى الإنجليز . يليه فى الترتيب الزمنى يواقيم ڤون وط السويسرى الشهير بڤاديانوس (٢) (١٤٨٤ — ١٥٥١) ، وقد أظهر فى كتابه « التأريخ الكبير لرؤساء دير سنت غالن (٣) » من البراعة فى نقد المصادر والنظر الفلسفى العميق ، والاقتدار على العرض الأدبى ، ما أحله بين مؤرخى زمانه مكاناً عالياً . ويكاد يعاصر ڤاديانوس معاصرة تامة بيتس رينانوس الألمانى (٤) (١٤٨٦ — ١٥٤٧) ، وهو الذى استخدم فى بحث مصادر التاريخ التيوتونى القديم نفس قواعد التفسير الناقد التى

(١) Polydore Virgil (٢) Joachin von Watt : Vadianus .

(٣) Grosse Chronik der Aebte von Sankt Gallen ودير سنت غالن دير سويسرى كان فى العصور الوسطى من مراكز العلم والتعليم الشهيرة . وحوالى عام ٩٥٤ أحيطت مبانيه بأسوار تقيها غزوات العرب فكان ذلك بدء تحوله إلى مدينة سنت غالن الحاضرة (٤) Beatus Rhenanus .

طبقها صديقه إرزمس (١) فى دراسة نصوص العهد الجديد وسجلات الـكنيسة . بل إن أسبانيا نفسها تأدى إليها تيار النهضة ، فإن دييجود منديوزا (٢) (١٥٠٣ — ١٥٧٥) مؤرخ الفتح القشتالى لغرناطة ، تعلم من الإيطاليين على كثرة صلاحه كيف يناقش المصادر قبل الشروع فى الـكتابة . أما اسكتلنده فقد أجاد تمثيل النهضة فيها جورج بوكنان (٣) (١٥٠٦ — ١٥٨٢) ، وكان ضليعاً من اللاتينية الفصحى بحيث كان فى وسعه أن يقص بها قصصاً فى منتهى الوضوح والقوة . إلا أن ملـكة النقد عنده كانت دون ملـكة الأدب ، فقد حشا كتابه « تاريخ الشؤون الأسكتلندية » بذكر خرافات ومعجزات تعد من سقط المتاع . أما فرنسا فتأخر وصول النهضة إليها تأخراً يدعو إلى العجب ؛ فحتى الوقت الذى كان يعمل فيه يوسف اسكاليجر (١٥٤٠ — ١٦٠٩) فى كتابه على التوفيق بين تاريخ أوزبيوس ووقائع التاريخ الزمنى الثابتة ، لم يكن ظهر بعد فى ملك آل فالوا رجل خليق بأن ينعت بالعلم بالآداب القديمة . زد على ذلك أن اسكاليجر كان فى أواخر أيامه أشد اتصالا بالأراضى الوطيئة منه بفرنسا . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أنه عند ما كان أستاذاً بجامعة ليدن ، كان من بين تلاميذه فتى اسمه هوجو جروشيوس (٤) (١٥٨٣ — ١٦٤٥)

(١) Erasmus   (٢) Diego de Mendoza .

(٣) George Buchanan

(٤) Hugo Grotius (١٥٨٣ — ١٦٤٥) كاتب وفقيه وسياسى هولندى كبير . امتاز باعتداله فى أمور الخلاف الدينى ، وحاول التوفيق فى بعض كتبه بين الـكثلكة والبروتستنتية . كان واسع الفكر ذهب إلى تبرير مبدأ حرية البحار فى كتابه Mare liberum وإلى وجود قانون طبيعى يحكم شؤون الناس وذلك فى كتابه De jure belli et pacis

لمع نجمه بعد وكان أنضر زهرة أخرجتها النهضة فى الأراضى الوطيئة .

على أن علماء النهضة أمثال بوكنان ، واسكاليجر وجروشيوس ، إنما كانوا رجالا من طراز يختلف جد الاختلاف عن علماء إيطاليا النزاعين إلى الوثنية والمؤثرين للآداب القديمة . كانوا رجال إصلاح دينى ، لا رجال نهضة أدبية ، كانوا نصارى من صنف جديد غريب لا أفلاطونيين محدثين ، كانوا عبرانيين بل فلسطينيين لا هيلينيين أو شيشرونيين (١) . ولقد عثر الإيطاليون من علماء النهضة ، وهم ينقبون عن النصوص القديمة ، على الترجمة اليونانية للعهد الجديد ، فلما درسوا ذلك المستند الثورى العجيب تبين لهم أن الترجمة اللاتينية للعهد الجديد المعروفة بالفلجات تشتمل على تحريف لعقائد المسيح والرسل ردىء جداً ، وأظهرت تلك الترجمة فوق ذلك حقيقة أخرى هى أن الـكنيسة الـكاثوليكية كانت على عهد بابوات القرن الخامس عشر تختلف اختلافاً شديداً من حيث النظام عن كنيسة إنجيليى القرن الأول . لقد وقف علماء إيطاليا على ذلك فلم يكترثوا له بل هزوا رؤوسهم ومضوا فى طريقهم . ذلك بأن يونانية العهد الجديد كانت تختلف عن يونانية عصر بريكليس إلى حد أنهم خافوا أن تفسد عليهم أسلوبهم إذا هم تعمقوا فى دراستها . ولقد بلغ الأمر بالـكردينال بمبو (٢)

(١) « العبرانيون » هنا على ما أخبرنى به زميلى الأستاذ يوسف شخت طائفة من العلماء كانت تضع دراسة اللغة العبرية فى الدرجة الأولى من الأهمية وتستمد منها تـكوينها العقلى . أما « الفلسطينيون » فمجرد تعبير عن المبالغة فى التمسك بالرأى المذكور . والمعنى العام أن علماء النهضة فى شمال أوربا كانوا يؤثرون الرجوع إلى العبرية ، فى حين أن علماء إيطاليا كانوا يؤثرون اليونانية واللاتينية .

(٢) Cardinal Pembo .

أن حذر أصحابه قراءة رسائل بولس الرسول لذلك الغرض عينه ! أما في شمالي جبال الألب فكان الأمر على خلاف ذلك . لقد كانت معاني العهد الجديد دون ألفاظه صاحبة الاعتبار الأول عند ذوى التعقل والجد من علماء ألمانيا وسويسرا والأراضى الوطيئة . وكذلك كان الشأن عندهم بإزاء العهد العبرى القديم الذى اتجهوا إلى دراسته عقب فراغهم من العهد الجديد . لذلك كانت النهضة فى الأقطار المذكورة عبارة عن اتجاه القوم إلى النصرانية الأولى بدلاً من اتجاههم إلى الدراسات القديمة . ومما شد أزرها رغبة أهل الشمال فى التحرر من النير اللاتينى والفرار مما كان يأخذهم به البلاط البابوى من تكاليف فادحة متزايدة . تلك الحركة المركبة التى كانت أخلاقية عقلية من جهة ، وجنسية سياسية من جهة أخرى ، قد بلغت الغاية فى ألمانيا فى عام ١٥١٧ إذ قام راهب أغسطينى وأستاذ بجامعة ڤتنبرج[١] ، فدعا من جديد إلى مذهب بولس الرسول القائل بكفاية الإيمان وحده ، وتحدى كل النظام البابوى بما اشتمل عليه من مواثيق ، وفتاوى ، وكفارات وبراءات بغفران الذنوب والخطايا .

لا يسعنا فى هذا المقام أن نعيد الكلام على النزاع الخطير الذى نشأ عن حركة الإصلاح الدينى ، ولا أن نقص من جديد تلك القصة الفظيعة التى تعرف بقصة الحروب الدينية ؛ وحسبنا أن نشير إلى أن النصرانية من أجل ذلك النزاع وتلك الحروب انقسمت على نفسها أبد الدهر ، وأن نار العداوة والبغضاء اضطرمت بوحشية لم تعهد منذ عهود

(١) هو مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) المصلح الدينى الألمانى المشهور .

المسيحية الأولى ، أيام كانت الوثنية والنصرانية تتغالبان أيتهما يكتب لها إنقاذ رومية وهدايتها ، وأن النصرانية غدت كسابقتها اليهودية ووليدتها الإسلامية[١] ، وعلى غير المعهود فى أكثر ديانات العالم الأخرى العظيمة ، ديانة تاريخية ، بمعنى أنها تقرر أن أصولها عبارة عن وقائع أصلية صحيحة مسلم بحدوثها فى زمان ومكان معينين . ثم هى ليست تاريخية من حيث أصولها فحسب ، بل هى كذلك لأنها ذاعت ونمت تبعاً لعوامل تاريخية أو تطورية . وبذلك أصبح التاريخ مرجع الناس يستمدون منه أقتل القذائف وأفتك المدمرات فى المجادلات التى ثارت بين لوثر والبابا ، وبين البروتستنت والكاثوليك ؛ وبين الفرق العديدة التى سرعان ما ظهرت فى الكنيسة المنحلة . ومن ثم توافرت دواع قوية تدعو إلى البحث التاريخى . نعم إن البحث لم يكن نزيهاً بالمرة ؛ فقد تناوله كلا الفريقين لنشر الدعاية المذهبية لا لغرض الوصول إلى الحقيقة العلمية . ومع ذلك لم يخل الأمر من الخير ، فكما أن التسامح الدينى جاء نتيجة محتومة ، وإن تكن غير مقصودة ، للحروب غير الفاصلة التى وقعت بين الكاثوليك والبروتستنت ، فكذلك جاءت الحقيقة التاريخية نتيجة غير مباشرة لتصادم الدعايتين المتنافستين الكاثوليكية والبروتستنتية . إن الناس لم يشهدوا قط تهالكاً على نبش أكداس التاريخ الكنسى المهجور كالذى شهدوه أيامئذ ، ولم تبلغ قط طريقة البحث التاريخى من القوة والتأثير ما بلغته إذ ذاك . لقد اقتدحت شرارة الحقيقة التاريخية من

(١) هكذا يرى المؤلف الإسلام .

وقع مضارب الفولاذ البروتستنتى على صفاة الجمود الكاثوليكى .

كان كتاب « سِيَر بابوات رومية »[١] (١٥٣٦) لروبرت بارنز[٢] و « كتاب الشهداء » (١٥٥٤) لجون فوكس[٣] مجرد مناوشات مبدئية لمعركة البروتستنتية والكثلكة ظهرت فى شكل سير للبابوات والشهداء . أما هجوم عامة الجيش البروتستنتى على قلعة الكثلكة فيتمثل فى الكتاب المسمى « قرون مجدبرج »[٤] وهو مؤلف عظيم طبع لأول مرة بمدينة بال فى سنى (١٥٥٩ — ١٥٧٤) بعنوان « تاريخ الكنيسة النصرانية[٥] » وفيه يسرد تاريخ الكنيسة النصرانية قرناً قرناً منذ أسست إلى عام ١٤٠٠ (ومن ثم اسمه الذى عرف وطبع به ابتداء من عام ١٧٥٧) . وقد تناول الكلام على الكنيسة كما صورتها أعمال الرسل فى صورة مثال سماوى مشروع للنظام والعقيدة ، ثم صور تاريخ الكنيسة فى الأربعة عشر قرناً التى أعقبت ذلك من حيث هو سيرة فساد واضمحلال سريعين مطردين . لقد صدم ذلك الكتاب نصرانية كانت آمنة راضية إلا أن ذلك لم يخل من بعض الخير لها ، فقد أدلى بطائفة من المعلومات الصحيحة عن المجامع والبابوات كانت تفتقر إلى كثير من الجهد فى توضيحها

---

(١) Vitœ Romanorum Pontificum

(٢) Robert Barnes (١٤٩٥ — ١٥٤٠) من رجال الإصلاح الدينى فى إنجلترا : أحرق بالنار فى عام ١٥٤٠ لتمسكه بآرائه البروتستنتية .

(٣) John Foxe (١٥١٦ — ١٦٨٧) هو أيضاً من رجال الإصلاح الدينى فى إنجلترا اشتهر بكتابه Book of Martyrs وقد ضمنه أخبار من استشهدوا من أجل اعتقادهم .

(٤) Magdeburg Centuries .

(٥) Historia Ecclesiae Christi .

وجلاء غامضها . لاشك أن كتاب « قرون مجدبرج » لماتياس فلاسخ (فلاكسيوس)[١] وأعوانه كان فاتحة لدراسة التاريخ الكنسى الحديث القائم على الفهم والتعقل . وقد اقتضى ما ينطوى عليه من تحد أن يرد عليه الكردينال قيصر بارونيوس[٢] بكتاب اسمه (الحوليات) . كان بارونيوس قيم مكتبة الفاتيكان ، فكانت تحت يده مجموعة وثائق العصور الوسطى الفريدة التى كانت ولا تزال فى ذلك المستودع التاريخى العظيم الذى لم يكن استغل بعد فى الشؤون التاريخية . لذلك استطاع بارونيوس أن يعرض على الجمهور المثقف أكداساً من المعلومات الجديدة ، وأن ينقض بصفة نهائية كثيراً مما قرره « كتاب القرون » . على أن بارونيوس تجاوز القصد ، وأضر بالقضية التى انتدب للدفاع عنها ضرراً بليغاً ؛ وذلك لمبالغته فى عدم تحرى الحق وركوبه فى الجدل متن الشطط والمجازفة . لقد طبعت « حوليات الكنيسة » فى رومية فى سنى ١٥٨٨ — ١٦٠٧ ، وإن ما اشتملت عليه من خطأ كثير ، وتنكب للحقيقة صارخ ، وإيحاءات كاذبة لم يقم عليها دليل ، كل ذلك جعلها فريسة لنقدات هتاكة فتاكة قام بها عالمان من علماء النهضة كبيران بروتستنتيان هما يوسف سكاليجر[٣]

---

(١) Matthias Flacius (١٥٢٠ — ١٥٧٥) مصلح دينى من أتباع لوثر . درس العبرية واللاهوت فى جامعتى فيتنبرج وويينا ، ويعتبر من السابقين إلى درس التاريخ الكنسى دراسة علمية .

(٢) Caesar Baronius (١٥٣٨ — ١٦٠٧) من مؤرخى الكنيسة اللاتينية . وما ذكره المؤلف عنه كاف فى الدلالة على مكانته العلمية .

(٣) J. J. Scaliger (١٥٤٠ — ١٦٠٩) عالم إيطالى الأصل وإن كان قد ولد وتعلم فى فرنسا ، عين أستاذاً فى أكاديمية جنيف ثم فى جامعة ليدن ، وهو من =

وإسحق كزوبون [١]، وبذلك امتدت أسباب ذلك الجدال الكبير.

ثم جاء القرنان السادس عشر والسابع عشر، فشهدا بواعث أخرى عدا اللاهوت شجعت على دراسة التاريخ. في مقدمة هذه البواعث ترتيباً وأهمية ما كان منها آتياً من قبل الأقطار التي انتهت بفتحها رحلات الاستطلاع والاستكشاف الكبرى المعتبرة أبرز خصائص ذلك الزمان. لقد اتصلت حضارة أوربا النصرانية في المكسيك و بيرو وبرنيو وجزائر البهار وجنوب إفريقية وجزائر المحيط الهادى، بمدنيات أو جاهليات مباينة بالمرة لنظائرها فى حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكنها في الوقت نفسه كانت جليلة القدر بما لها من قدم العهد، فاتنة بما لها من جاذبية الشيء الجديد المستطرف، فكان ذلك حافزاً لخيال المؤرخين، موسعاً لنطاق البحث التاريخي، إذ حل البحث عن العادات والآداب والعقائد والنظم السياسية والاجتماعية محل ما شهدته العصور الوسطى الرواكد من حوليات وتواريخ رتيبة متشابهة. ولقد كان معظم متقدمي الطبقة الجديدة

= أكبر علماء زمانه وخاصة من حيث النقد التاريخي فهو أول من وضع قواعد لنقد وضبط النصوص التاريخية؛ وأول من نبه على أن التاريخ القديم ليس عبارة عن اليونان والرومان فحسب، بل إن الدرس المقارن لتاريخ أمم الشرق القديم وطرق التوقيت عندها ضرورى للوصول إلى نتائج عامة مقررة. وقد نشر بحوثه المتعلقة بذلك في كتاب سماه De emendatione temporum.

(٢) Isaac Casaubon (١٥٥٩ — ١٦١٤) عالم كبير إنجليزى الأصل متجنس بالجنسية الفرنسية تولى الأستاذية بجامعتى جنيف ومونبلييه فوكالة المكتبة الملكية بباريس. ثم انتقل إلى إنجلترا بدعوة من ملكها جيمس الأول وأقام بها حتى وفاته، نشر كثيراً من المراجع اللاتينية القديمة وعلق عليها تعليقات ضافية قيمة، ونشر كذلك نقداً لحوليات بارونيوس. وقد ترك مذكراته اليومية وهى خير ما يصور الحياة اليومية لرجل العلم فى القرن السادس عشر.

من المؤرخين الاجتماعيين أصلا وبطبيعة الحال من الأسبان. فمن أعلامهم جنزالوده أفيدو [١] (١٤٧٨ — ١٥٧٠) وبرتولومى ده لاس كازاس [٢] (١٤٧٤ — ١٥٦٦). وفرانسيسكو ده جمارا [٣] (حوالى ١٥١٢ — ١٥٧٠) وأنطونيو ده هريرا [٤] (١٥٤٩ — ١٦٢٥). وثم باعث آخر وثيق الاتصال بالباعث المتقدم الذكر هو التغير الذى طرأ على الأحوال الاقتصادية بسبب كشف العالم الجديد. فالاستعمار، والاتجار وراء البحار، والرأسمالية، والصناعة الغير منظمة ونظام الزراعة الإقطاعية المنحل، كل ذلك نشأ عنه ثوران اجتماعى حمل كثيراً من العمال التعساء الذين اضطربت حالهم على البحث في أصول ومسوغات الشرائع والحكومات التى سببت شقاءهم. ففى إنجلترا حيث ساءت سمعة الفتح النرمندى وتناقل الناس أنه كان السبب فى أكثر المصائب التى انتابت فلاحى القرن السابع عشر، كان من هم المهيجين أمثال إفررد [٥] وونستنلى [٦] أن يستوفوا البحث عن حقيقة الفتح النرمندى ماذا كانت بالدقة.

وأبلغ فى بعث نشاط المؤرخين من الاستكشافات الجغرافية والتحول الاجتماعى تلك الخصومات الدستورية التى امتاز بها القرن الممتد من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٦٥٠ ونخص منها بكلامنا ثلاثاً كن ذوات أهمية عظمى فيما نحن بصدده.

(١) جهاد الأراضى المنخفضة الهولندية من أجل الاحتفاظ بحقها

(١) Gonzalo de Oiedo. (٢) Bartolomé de Las Casas.

(٣) Francisco de Gomara. (٤) Antonio de Herrera.

(٥) Everard. (٦) Winstanley.

القديم فى الحكم الذاتى والاستقلال الإقليمى عن مركزية فيليب ملك أسبانيا المتحيفة الباغية ؛ فقد اقتضى الجدل الذى تقدم ذلك الجهاد بحثاً عميقاً فى محفوظات العصور البرغندية وحتى محفوظات العصور الكارولنجية .

(٢) النزاع الذى ثار فى فرنسا بين الملك و بين طبقة النبلاء الإقطاعيين ، وهو نزاع دقيق توقف الأمر فيه على نتائج البحث التاريخى ، فإن طائفة من الكتب المشتركة بين الفقه والتاريخ — من أحسنها كتاب فرنكو غاليا (١٥٧٤) لهوتمان[١] — عرضت على الناس الأصول الكابتية [٢] للملكية الفرنسية وانتصرت لقضية الحكم الدستورى .

(٣) ولكن أهم من النزاعين المذكورين وأبعد أثراً ذلك الخصام الألد الذى ثار فى إنجلترا فى أوائل القرن السابع عشر بين ملوك آل استيورت و برلماناتهم . كان كلا الفريقين المتنازعين يرجع إلى السوابق القديمة يستظهر بها . فالملوك كانوا يحتجون بأنهم إنما يطالبون بامتيازات ثبتت لإيصابات وهنرى الثامن بدون نزاع ، و باشرها كليهما من غير أن يلقى عليها اعتراضاً . وكانت البرلمانات من ناحيتها تحتج بأنها إنما تطالب بامتيازات وتدعى حقوقاً أقرها واعتمدها هنرى السادس على أكمل الوجوه وأصحها . وأقبل المشتغلون بالشؤون القديمة من الفريقين يستثيرون دفائن الوثائق الرسمية العتيقة ، ويدرسون القوانين القديمة المهملة ، و يجمعون كل سابقة لها صلة بموضوع النزاع . فأما أنصار الملك ، ولاسيما وكيله العمومى

(١) Hotman .

(٢) نسبة إلى أسرة كابت القديمة التى تملكت على فرنسا من عام ٩٨٧ إلى عام ١٣٢٨ .

وى[١] ، فكانوا موفقين غاية التوفيق إذ وقفوا على ما لا يحصى كثرة من الحيل الخسيسة والأساليب المعنتة التى كان يجبى بها ملوك العصور الوسطى الأموال من رعاياهم المانعين لها . وأما كبار محامى البرلمانيين ، أمثال كوك ، وسلدن ، وسپلمان ، وسنت جون[٢] ، فإنهم من ناحيتهم أمدوا تاريخ الدستور الإنجليزى وتاريخ تطوره بمدد خالد باق على الزمن بأن نشروا على الناس الأسس التى تقوم عليها حريات الشعب . وأغنى الجدل الذى ثار بين شارل الأول وجون همپدن[٣] فى نمو دراسة التأريخ فى إنجلترا غناء الجدال الذى ثار بين البابا ليو العاشر و بين لوثر فى نمو دراسة التاريخ فى ألمانيا . وهنا أيضاً نجد أنه بعد أن ركدت عجاجة المعركة ، قد برزت الحقيقة التاريخية حرة طليقة وسط الصفين المقتتلين المجهودين من غير تحيز لواحد منهما .

وأياً ما كانت الحال فإن الخصومات الدينية والسياسية لم تسكن ثائرتها فى أوربا إلا بعد زمن طويل ، ذلك بأن تشكك الناس فى المسائل الدينية والركود الذى عرا الشؤون السياسية ، لم يأذنا للناس بقدر كاف من الطمأنينة يجعل التاريخ يعود فيثبت أنه علم وليس بأداة حرب إلا بعد أن تصرم من القرن الثامن عشر مقدار غير قليل وكان أول من نادى فى القرن الثامن عشر بوجوب نقل التاريخ من ميدان الحرب إلى مجلس الدرس هو ذلك الرجل العجيب الشأن جيوڤنى باتستاڤيكو[٤]

(١) Noy (٢) Coke ; Selden; Spelman; St. John .

(٣) John Hampden .

(٤) Giovanni Battista Vico (١٦٦٨ — ١٧٤٤) فقيه وفيلسوف إيطالى ولد وعاش فى نابلى . درس الآداب القديمة وخاصة أفلاطون وجروشيوس : الأول لتصويره الإنسان المثالى والآخر لتصويره الإنسان كما هو فى الواقع . وقد تأثر ڤيكو بفرنسيس باكون وجروشيوس فبعثه الأول على دراسة بعض كبريات مسائل =

(١٦٦٨ — ١٧٤٤) الذى ظهر مؤلفه العظيم « أصول علم جديد » فى عام ١٧٢٥ . لقد اعتبر ڤيكو التاريخ فى هذه الرسالة الجامعة فرعاً من علم واسع شامل لشؤون المجتمع الإنسانى ، وذهب إلى أن منهج بحثه يقوم على أصول منطقية دقيقة ، ونظر إلى كل عصر من عصوره على أن له مكاناً خاصاً من نظام تطورى ، وتناول مجرى الحوادث من حيث هو دورى ومطرد معاً ، وترك الفكرة العامة القائلة بأن الأمور تجرى بخطة دبرها مدبر حكيم لاستنتاج القارىء واستنباطه . أما من حيث الفائدة التى عادت على فلسفة التاريخ من الكتاب المذكور فحسبنا أن نقول إنه يعتبر فى مقدمة ما كتب فى هذا الموضوع فى القرن الثامن عشر . على أنه لم يكن فى طاقة ڤيكو أن يدرس التاريخ دراسة عملية مؤسسة على الإدراك الصحيح والأصول العلمية ، ذلك أنه لم يكن أصلا من المؤرخين وإنما كان من رجال القانون ، فكان عليه أن يدع لغيره تطبيق مبادئه . ولقد دل مونتسكيو[1] (١٦٨٩ — ١٧٥٥) على أنه أسبق وأعظم من حاولوا الاضطلاع بتلك المهمة . فإلى أى حد كان مونتسكيو تلميذا لڤيكو ، وتابعا محسا بتبعيته له ؟ ذلك موضوع كثر فيه الخلاف . لقد عثروا فى خزانة كتبه على نسخة من كتاب ڤيكو ، ولكن لم يقم دليل مباشر على أنه قرأها قط . فإذا صح ذلك فإنه يكون قد طبق مبادىء ڤيكو أعجب تطبيق بما أدلى به فى مؤلفاته « رسائل فارسية » و « عظمة الرومان واضمحلالهم » و « روح القوانين » من عرض واسع المدى لوقائع التاريخ والسياسة . لقد درس مونتسكيو فى المؤلفات المذكورة ، مع التجرد الهادىء الذى يوصف به العلم الطبيعى ، تطور الشعبين الإنجليزى والفرنسى الدستورى وأحوالهما القائمة لعهده ، ووازن بينهما ، ثم قابل بينهما جميعاً وبين نظائرها عند الرومان وعند كل أمة أخرى قديمة ذات تاريخ مسطور . ولقد أسدى إلى ما لعله يكون علماً للاجتماع فائدة باقية على الزمان بتوكيده ما بين الأجواء والنظم والآراء من وجوه الاتصال . وأشد من مونتسكيو هدماً بالنقد الشكاك ومجاهرة بعدم الاكتراث المطلق ، فرانسوا مارى أرويه الشهير بڤولتير[1] (١٦٩٤ — ١٧٧٨) . فكتابه « تاريخ شارل الثانى عشر » (١٧٣١) عبارة عن عرض بارع مستنير لسيرة ذلك الملك السويدى المغوار الذى أشبهت حياته حياة الشهب شدة ائتلاق وسرعة هوِىّ ، وكتابه «عصر لويس الرابع عشر» (١٧٥١) لم يتقيد فيه بالترتيب

—— التاريخ والفلسفة ، وبعثه الآخر على درس فلسفة القانون . وقد صاغ ڤيكو خلاصة دراسته فى كتابه المذكور فى المتن .

(١) Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥) مؤرخ فلسفى فرنسى كبير ، ولد بالقرب من بردو ، وتعلم فى بردو وطاف ممالك أوربا ، فلما ظهر علمه صار عضواً بالأكاديمية بعد معارضات متكررة . اشتهر فى « الرسائل الفارسية » التى كتبها على لسان سائحين فارسيين خياليين بدعابته اللاذعة ونقده القاسى لمناحى الحياة الفرنسية العامة لعهده . أما كتاباه « عظمة الرومان واضمحلالهم » و « روح القوانين » فيمتازان ببلاغة الأسلوب وعمق الفكرة وصحة الحكم ، وقد أثنى ڤولتير على الكتاب الثانى برغم عداوته لمونتسكيو .

(١) François Marie Arouet, Voltaire (١٦٩٤ — ١٧٧٨) هو الشاعر الناثر البليغ الفرنسى المشهور ذو العقل الجبار والنفس الساخرة الهازئة والنشاط الأدبى المنقطع النظير . ولد فى باريس ، وزار إنجلترا وبروسيا بدعوة من فردريك الكبير . وقد قضى معظم حياته بفرناى قريباً من جنيف . كتب عدة روايات تمثيلية ونظم غير ملحمة ؛ كما كتب فى التاريخ والقصص والفلسفة . وكان فى معظم ما كتب قوياً مبرزاً ، وقد أثرت تآليفه فى الحياة الأوربية الاجتماعية والأدبية أبلغ التأثير .

الزمنى الدقيق ، بل نفـذ إلى صميم عناصر القوة والضعف فى فرنسا على عهد « الملك المنير »[1] . وكتابه « مقالة فى الآداب » (١٧٥٦) يعتبر أول محاولة صادقة لوضع تاريخ عام للثقافة . وقد اشتهر باعتراف ڤولتير فيـه بفضل العرب على الحضارة المسيحية ، وبتناوله الـكلام على الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، وبإعراضه التـام عن كل ما غلب على التأريخ من أيام هيروشيوس إلى وقته من تعليل الحوادث بعلل سماوية . ولقد أثر ڤولتير بنزعته التعقلية وروحه الفياض فى المنشآت التاريخيـة التى أنشأها ديڤيدهيوم[2] (١٧١١) — ١٧٧٦) . ووليم روبرتسون[3] (١٧٢١ — ١٧٩٣) . وميشيل شميت[4] (١٧٣٦ — ١٧٩٤) . وإدورد جبون[5] (١٧٣٧ — ١٧٩٤) . وأرنولدهيرن[6] (١٧٦٠ — ١٨٤٢) . وكل أولئك يتفق قليلا أو كثيراً مع بولنجبروك

(١) هو لويس الرابع عشر .

(٢) David Hume (١٧١١ — ١٧٧٦) فيلسوف ومؤرخ واقتصادى بريطانى كبير . كتب فى المعرفة والإلهيات ، والأخلاق والتاريخ والاقتصاديات كتابات لا يزال بعضها مرجعاً للباحثين فى هذه العلوم .

(٣) William Robertson (١٧٢١ — ١٨٩٣) مؤرخ اسكتلندى ، ترجم كتابه « تاريخ عهد الإمبراطور شارل الخامس » إلى كثير من اللغات الأوربية .

(٤) Michael Schmidt مؤرخ ألمانى كتب تاريخاً للأمة الألمانية قيما ولـكنه توفى قبل تمامه .

(٥) Edward Gibbon (١٧٣٧ — ١٧٩٤) مؤرخ إنجليزى كبير كتب تاريخ « اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية » ولا تزال لـكتابه هـذا قيمة أدبية وعلمية ، وقد طبع حديثاً بتحقيق الأستاذ بيورى .

(٦) Arnold Heeren (١٧٦٠ — ١٨٤٢) مؤرخ وأستاذ ألمانى امتاز بدراسة التاريخ القديم دراسة قائمة على معرفة الأحوال الاقتصادية وبذلك يعتبر من السابقين إلى القول بـ « التفسير الاقتصادى للتاريخ » .

فى القول بأن التاريخ تعليم للفلسفة بضرب الأمثال . إلا أنهم مع نبذهم لفلسفة التاريخ التى شاعت من أيام أوغسطين إلى بوسيويه[1] لم يدركوا على الإطلاق ما ينبغى أن يعلّمه التاريخ ولا الذى كان يعلّمه بالفعل ؛ أما من حيث منهج البحث ، فإنهم جميعاً ، وإن كانوا قد حاموا حول تمحيص المصادر الأصلية ونقدها ، كانوا أميل إلى الشروع فى الـكتابة قبل تمام التمـكن من المصادر . وفوق ذلك فإنهم ، شيئاً بعد شيء ، ومع التنبيه على استثناء هيرن ، مدوا نطاق بحوثهـم إلى خارج دائرة الدين والسياسة المحدودة . أما هيرن فيعتبر من هذه النـاحية مبرزا على سائر من ذكرنا وسباقا .

وبينا هذه العصبة الممتازة من المؤرخين التعقليين عاكفة على عملها ، إذا بالثورة الفرنسية يندلع لهيبهـا (١٧٨٩) ، فتصد تيار علم التاريخ عن وجهته وتحوله إلى وجهة أخرى كما فعلت بأكثر ما عداه من الشؤون . فى ذلك الوقت كان لفيف من ناشئة المؤرخين ، وبخاصة فى ألمـانيا ، يكتب بأسلوب فيه روعة تحت تأثير روسو[2] الذى كان من شأنه الانسياق مع

(١) Bossuet (١٦٢٧ — ١٧٠٤) عالم دينى وخطيب وكاتب فرنسى ، خاض غمار الجدل بين البروتستنت والـكاثوليك ، وكان يريد التوفيق بينهما ، وله رسالة فى التاريخ العام : Discours sur l'histoire universelle وتعتبر من أول ما كتب فى فلسفة التاريخ .

(٢) J. J. Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨) فيلسوف وكاتب فرنسى مشهور ؛ كان ذا نفس جمة التقلب والحساسية . وقد ظهر أثر ذلك فى حياته المضطربة القلقة ، وظهر أثر الأمرين معاً فى تآليفه الأدبية . أشهر تآليفه « العقد الاجتماعى » و « إميل » و « الاعترافات » ، وهو يعد من الـكتاب الذين مهدوا للثورة الفرنسية وللحركة الابتداعية (الرومنتيكية) .

العاطفة والعمل على قلب الأوضاع رأساً على عقب . وقد ظهر من كتاباتهم أنها بداية رد فعل لمذهب التعقل الجاف البادى فى كتابات ڤولتير ومدرسته . نذكر من هؤلاء المؤرخين يوحنا هردر [١] ، وقد صدر كتابه « خواطر فى فلسفة تاريخ الإنسانيـة » فى سنى ١٧٨٤ — ١٧٩١ ، ثم يوحنس ميللر [٢] وقد بدأ فى عام ١٧٨٦ نشر كتابه الحماسى « تاريخ الحلف السويسرى » ، ثم فردريخ شيلر [٣] الذى صدر كتابه ذو العبارة الشعرية العالية والخاص بحرب الثلاثين سنة فى عام ١٧٩١ ، ثم فريدريخ شلوسر [٤] ، وقد حاول فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وضع تاريخ عام مفصل ، ولـكنه عجز عن إتمامه . إلا أن الخمس والعشرين سنة العظيمة التى شهدت الثورة وحروب الثورة (١٧٨٩ — ١٨١٥) كانت غير ملائمة للبحث التـاريخى والإنشاء التأريخى ، فالحوادث كانت أعجل من أن تسمح بالتفكير ، والأهواء كانت أجمح من أن تأذن باستخلاص المعانى ، وتغـير الآراء كان أسرع من أن يضمن تـكوين عقيدة ما .

فلما جنحت أوربا مرة أخرى بعد مؤتمر ڤينا (١٨١٥) إلى سلم حملها عليها الجهد والإعياء ، تبين أن قد حـدث رد فعل قوى لتعاليم روسو والثورة الفرنسية . وخير من يتمثل به فى ذلك فى مجال الفلسفة هو ج . ج . نخت [١] (١٧٦٢ — ١٨١٤) فـكتاباه « نظرات فى الثورة الفرنسـية » (١٧٩٣) و « أساس الحقوق الطبيعية » (١٧٩٦) يسرى فيهما روح العقد الاجتماعى : من فردية ، ودوليـة ، ومساواة ؛ على أن كتابيه « الدولة التجارية المقفلة » (١٨٠٠) و « النظرية السياسية » (١٨١٣) يدلان على أنه انصرف عن روسو انصرافا تاما ، وأنه تحول بمجامع قلبه إلى المبدأين الرجعيين : الجماعية والقومية . هذا ولم يعمر واحد من المؤرخين حتى يشهد مثل هذا التحول التام ، اللهم إلاَّ إذا عددنا فى المؤرخـين تلك العصبة الإنجليزية المؤلفـة من : روبرت سوذى ، ووليم وردزورث ، وصمويل تيلر كولردج ، وجيمس مكنتوش [٢] . لقد استأثر الموت قبل عام ١٨١٥

---

(١) Johann Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣) شاعر وفيلسوف ألمانى يمتاز شعره بسهولته ونزعته الوجدانية ، أشهر مؤلفاته على الإطلاق كتابه الفلسفى المذكور فى المتن ، وفيه يحاول المؤلف أن يفسر النمو الانسانى من طريق البحث فى ماهية اتصال الإنسان بالبيئة الطبيعية .

(٢) Johannes Müller (١٧٥٢ — ١٨٠٩) مؤرخ سويسرى ، كتب تاريخاً عاما لسويسرا Geschichten der Schweizer وصل فيه إلى عام ١٤٨٩ وقيمته اليوم أدبية فقط ، ولـكنه غذى الوطنية السويسرية إلى حد بعيد .

(٣) Friedrich Schiller (١٧٥٩ — ١٨٠٥) شاعر ، ودرامى ، وفيلسوف ألمانى كبير ، شعره وجدانى النزعة ، ومن أقوى دراماته المأساة المسماة « اللصوص » Die Räuber وأهم ما كتب فى التاريخ كتابه المذكور فى المتن ، وله بحوث فلسفية فى نظرية الجمال .

(٤) Friedrich Schlosser (١٧٧٦ — ١٨٦١) مؤرخ ألمانى وسع أفق بحثـه فى التاريخ ، فلم يقتصر على الحروب وحياة الملوك والأمراء بل وصف أحوال الشعوب وحضاراتها ، وأهم كتبه كتابه المذكور فى المتن Weltgeschichte .

(١) J. G. Fichte (١٧٦٢ — ١٨١٤) فيلسوف ألمانى تتلمذ لـكانت وتأثر به فى مذهبه الفلسفى .

(٢) Robert Southey (١٧٧٤ — ١٨٤٣) و William Wordsworth (١٧٧٠ — ١٨٥٠) و Samuel Taylor coleridge (١٧٧٢ — ١٨٣٤) و James Mackintosh (١٧٦٥ — ١٨٣٢) هؤلاء أصلا شعـراء من الإنجليز رفعوا لواء الشعر الابتداعى (الرومنتيكى) ، غير أن لهم كتابات تاريخية كتبوها على سبيل الهواية لا التخصص .

يهردر (١٨٠٣) وشيلر (١٨٠٥) وميلر (١٨٠٩) ، أما الطبقة الجديدة من المؤرخين ، فكانت فى قبضة حركة رجعية ابتداعية[١] قد بدت طلائعها.

كانت هذه الحركة الجديدة أعجب آثار عصر الثورة الفرنسية . كانت إيذاناً بثورة عنيفة على العقليــة الشكاكة التى اتصف بهـا ڤولتير والمَعْلَميون[٢] الفرنسيون والتى أتت ملك آل بور بون والـكنيسة الغالية من قواعدها ، كما كانت إيذاناً بثورة عنيفة على فلسفة روسو ، وكانت المجردة التى نبذت ظهريا عـبر التاريخ ومُـثلاته ، وراحت تظاهر ذوى البدع فى محاولتهم إقامة المجتمع الإنسانى على أسس جـديدة بالمرة . كان أبرز صفات تلك الحركة الرجعية إخلاصها للديانة السماوية[٣] ، واحترامها للقديم لأنه قديم ، وخضوعها للتقاليد والعرف ، وتمجيدها للعصور الوسطى وعدها إياها مثلاً أعلى بين العصور ، وبعثها مبدأ الحق الإلهى فى الحكم ، وإجلالها مبدأ القومية ، واعتراضها على مبدإ الديمقراطية . وعاد التاريخ فأصبح مرة أخرى على أيدى الابتداعيين تعليميا عمليا ، فبُعثت عبادة الفروسية ، وبدت مفاخر العصر الوسيط ومحاسنه فى ألوان بهجة زاهية فى

(١) Romantic Reaction

(٢) نسبة إلى « معلمة » وهو لفظ استعمله بعض أدباء هذا العصر لـكلمة Encyclopaedia أو « دائرة معارف » ، والمراد بالمعلميين الفرنسيين جماعة من كتاب فرنسا فى القرن الثامن عشر توفرت على تأليف معلمة تضم شتات العلوم لعهدهم وتكون أساسا لوضع نظام اجتماعى جديد . وأشهر هؤلاء الـكتاب ديدرو Diderot ودالمبرت D' Alembert

(٣) المراد بها هنا النصرانية ، وفى ذلك إشارة ضمنية إلى اعتقاد ڤولتـير ، ومن على شاكلته من كتاب عصر الثورة بوجود الإله ولـكن من غير طريق دين سماوى .

مثل «مجموعة تاريخيـة» لبرو[١] (١٨٢٠) و «حجر الشرف العريض» لدجبى[٢] (١٨٢٢) و « الفروسـية وعصرها » لبوشنج[٣] (١٨٢٣) و « تاريخ الفروسية » لجيمس[٤] (١٨٣٠) . وموهت عيوب كنيسة العصور الوسطى ، وصورت النواحى الجذابة من عصور التدين تصويراً زاهى الألوان فى مؤلفات لا يتناولها الحصر ، كان أشهرها وأبعـدها أثراً كتاب شاتو بريان[٥] «عبقرية النصرانية» (١٨٠٢) و «الفتح النرمندى» لتييرى[٦] (١٨٢٥) و «دوقات برغندية» (١٨٢٦) لبارانت[٧] ، وذلك

(١) Perrot. جغرافى وكاتب فرنسى من أهـل القرن التاسع عشر ، له آثار جغرافية كثيرة ، وله المجموعة المذكورة فى المتن وهى خاصة بنظم الفروسية .

(٢) Digby (١٨٥٠ — ١٨٨٠) كاتب إنجليزى اشتهر بكتابه المذكور فى المتن Broad Stone of Honour ، وقد عرض فيـه بتفصيل للعادات التى كانت شائعة فى العصور الوسطى .

(٣) Busching (١٧٨٣ — ١٨٢٩) مؤرخ وأسـتاذ ألمانى خير كتبه الـكتاب المذكور فى المتن Ritterzeit und Ritterwesen .

(٤) James (١٧٩٩ — ١٨٦٠) قصاص ومؤرخ إنجليزى له قصص كثيرة ، وله من التاريخ الـكتاب المذكور فى المتن .

(٥) Chateaubriand (١٧٦٨ — ١٨٤٨) من أكبر كتاب فرنسا الحديثة ، ولى عدة مناصب سياسـية فى عهد نابليون وعهد الملـكية . أشـهر تآليفه كتابه المذكور فى المتن Génie du Christianisme وهو يظهر فيه محاسن النصرانية ، وقد تأثر به غير واحد من كبار كتاب فرنسا فى القرن التاسع عشر .

(٦) Thierry (١٧٩٥ — ١٨٥٦) مؤرخ فرنسى من أنصار مبادىء الثورة الفرنسية . تأثر فى كتابة التاريخ بشاتو بريان وبنزعة السير ولتر سكوت الابتداعية . وأشهر كتبه كتابه المذكور فى المتن عن فتح النرمنديين إنجلترا ، وقد عول فيه على المصادر الأصلية .

(٧) Barante (١٧٨٢ — ١٨٥٦) سـياسى ومؤرخ فرنسى أهم كتبه الـكتاب المذكور فى المتن Histoire des ducs de Bourgone ، وقد نال رضا المدرسة الابتداعية بصيغته القصصية وأسلوبه الخاص .

الكتاب الرائع « تاريخ فرنسا » لميشيليه[1] (ابتداء من ١٨٣٣) و « الماضى والحاضر » لكرليل[2] (١٨٤٣) . كل هذه الكتب توضح كيف انصرفت أذهان الناس عن الواقع المستبشع إلى المثل الأعلى الدارس ، إلى « فضائل العالم القديمة » التى كانت إلى حد بعيد خرافية ووليدة الوهم والخيال . ومثل ذلك قد يقال عن كتب أخرى أفادت العلم فوائد محققة مثل كتاب « تاريخ السياسة والتشريع فى ألمانيا » لأيخورن[3] .

إن الصنيع الوحيد الذى أسدته الحركة الابتداعية إلى التاريخ هو أنها ردت على العصور الوسطى مقامها ، وبرأتها مما وصمها به رجال النهضة والإصلاح الدينى وعصر الاستنارة ، ووجهت العلماء إلى دراسة سجلاتها التى طال إهمالهم لها وعدم احتفالهم بها . بيد أن روح الحركة الابتداعية كان خاطئاً ، لقد أبى أن يعتبر الماضى ماضياً ، وكان شر ما أسرفت فيه

(١) Michelet (١٧٩٨ — ١٨٧٤) مؤرخ فرنسى . أشهر كتبه كتابه المذكور فى المتن ، وهو يدل على أن مؤلفه كان على سعة تصوره وخياله ينظر إلى الحوادث بعين الهوى السياسى والدينى .

(٢) T. Carlyle (١٧٩٥ — ١٨٨١) هو الكاتب المؤرخ الفيلسوف الإنجليزى المشهور . بنى التاريخ على سير الأبطال دون كبير اكتراث المبادىء والتيارات العامة . أشهر كتبه فى التاريخ كتابه المذكور فى المتن Past and Present وتاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ فردريك الكبير .

(٣) Eichorn (١٧٨١ — ١٨٥٤) فقيه ألمانى يعتبر من الثقات فى تاريخ ألمانيا الدستورى . وأشهر مؤلفاته كتابه المذكور فى المتن Deutsche Staats-und Rechtsgeschichte.

عبقريته المسكة بذناب الماضى ماثلا فيما يسمى بفلسفة التاريخ عند شليجل[1] ، وشلنج[2] ، وهجل[3] .

(١) Schlegel (١٧٧٢ — ١٨٢٩) شاعر ونقاد وعالم ألمانى اشتهر بنزعته الابتداعية والشعرية فى دراسة اليونان والرومان ، والفلسفية فى دراسة التاريخ بوجه عام . وتتجلى طريقته الفلسفية فى التاريخ فى كتابه « فلسفة التاريخ » Philosophie der Geschichte .

(٢) Schelling (١٧٧٥ — ١٨٥٤) فيلسوف ألمانى له بحوث فى فلسفة الأساطير وفلسفة التاريخ .

(٣) Hegel (١٧٧٠ — ١٨٣١) فيلسوف ألمانى له مذهب فلسفى يوصف بالغموض . وله بحوث فى فلسفة التاريخ تتلخص فى أن الدولة كائن مفرد ، وأن مادة التاريخ عبارة عن علاقة الدول بعضها ببعض وعلاقتها بالروح العام التى هى مظهر له ، وأن تاريخ العالم عبارة عن مجلس قضاء يقبض فيه على صولجان الحكم شعب واحد يمثل الروح العام ، ويظل كذلك إلى أن يظهر شعب آخر أوسع منه حرية فينزع منه ذلك الصولجان ، وأن تاريخ الدنيا يقع فى ثلاثة عصور : الشرقى ، واليونانى الرومانى ، والجرمانى ، وأن الحرية تمثلت فى العصر الأول فى الحاكم المستبد ، وفى العصر الثانى فى النظام السائد ، وفى العصر الثالث فى الإنسان من حيث هو إنسان . وغير خاف ما فى ذلك التصور من شطط وتعسف .

الفصل الخامس

بوادر الدراسة العلمية للتاريخ

فى القرن التاسع عشر

مقاصد جديدة — تصورات جديدة — طرائق جديدة — تأثير العلم الطبيعى — فكرة النشوء — نشر المصادر

عرضنا فيما سبق التاريخ من أقدم العصور إلى مفتتح القرن التاسع عشر عرضاً كان سريعاً وسطحياً بحكم الضرورة ، ومنه يؤخذ أن دراسة التاريخ لم تبلغ فى عصر من تلك العصور من الدقة والنزاهة والإحاطة المبلغ الذى يقتضيه العلم الصحيح . نعم إن تيوسيديد وبوليب كانا فى العصر القديم أقرب إلى الروح العلمى فى تناولهما المدونات القديمة ، كما كان ابن خلكان وابن خلدون فى العصر الوسيط ، ومكيافلى وجويشرديني وكتّاب القرن الثامن عشر أو عصر الاستنارة فى مفتتح العصر الحديث . إلا أنهم جميعاً لم يبلغوا من الوجهة العلمية مرتبة الكمال . فغرض تيوسيديد وبوليب من التاريخ كان من غير نزاع سياسياً ، وغرض عرب العصور الوسطى دينياً(١) ، وغرض كتاب النهضة من

(١) ذلك لأن الدين كان على وجه العموم أساس الحياة العقلية عند العرب فى العصور الوسطى .

أهل فلورنسا وطنياً وقومياً . أما كتاب القرن الثامن عشر من لدن ڤولتير إلى جبون فإنهم ، وإن كانوا قد تحرروا إلى حد ما من الحمية لمذهب بشرى أو سماوى ، لم يفلحوا فى التجرد من الغرض والهوى ، فأفسدوا بذلك كل ما كتبوا . ثم إنهم كانوا أصلاً مهملين من حيث الدقة فى الجزئيات وتقصى المعلومات ، فجاءت كتاباتهم وهى أدخل فى عداد القصص الخيالى منها فى عداد التاريخ العلمى . من أجل ذلك يلتمس للسير روبرت وُلْبول(٢) بعض العذر حين يقول : « إن التاريخ ليس أهلاً للدرس فنحن نعرف أنه يفترى الكذب لا محالة » . ثم إن دوام سريان الخطأ الفاضح — وإن يكن طريفاً — من مؤلف إلى مؤلف إلى ما لا نهاية له ليؤيد بعض الشىء قول القائلين : إذا كان التاريخ لا يعيد نفسه فالمؤرخون لا شك يعيد بعضهم بعضاً .

وبينا نجد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وثنيي النهضة الجدد عاكفين على بعث عبادة الآداب القديمة ، والمصلحين الدينيين جادين فى بعث النصرانية الأولى ، والعقليين يتجهون نحو الطبيعة ، والابتداعيين نحو العصور الوسطى ، إذا بنا نلحظ إلى جانب هؤلاء قوماً آخرين كانوا يقومون فى بطء — ولكن فى مخافتة وجد — بعمل كان من شأنه تيسير نمو علم التاريخ فى القرن التاسع عشر ، ذلك هو جمع المصادر التاريخية ونشرها . لقد كان هذا العمل يحاول أول الأمر فى شىء من التقطع

(١) Sir Robert Walpole (١٦٧٦ — ١٧٤٥) سياسى إنجليزى مشهور . رأس الوزارة الإنجليزية من عام ١٧٢١ إلى عام ١٧٤٢ .

والتهاون ، لأن حرفة النشر لم تكن ملكتها قد اكتسبت بعد ، وكان لابد دون اكتسابها من أن يلقى الناشرون إخفاقاً متكرراً يؤسف له . ولكن الناشرين اكتسبوا بالتدريج الخبرة الفنية اللازمة ، وأمكن آخر الأمر أن تظهر تباعاً مجاميع من المادة التاريخية الموثوق بصحتها .

ونورد فى هذا المقام بعض المجاميع العلمية الهامة التى تمت قبل القرن التاسع عشر ، منبهين إلى أن المجاميع المذكورة كانت إلى حد بعيد ثمرة أمرين أذكتهما منازعات عصر الإصلاح الدينى ، وهما الشعور القومى الحديث والعصبية الوطنية الجديدة . وكانت إنجلترا أسبق الأمم فى هذا المضمار بنشرها مجموعات من تاريخها اشتهر منها مجموعتا هول[1] (١٥٤٧) وهولينشد[2] (١٥٨٦) (وهما مصدر أغلب روايات شيكسبير التاريخية) ، ثم اقتفت أسبانيا أثر إنجلترا فنشرت مجموعة روبرت بيل[3] « كتّاب الشؤون الأسبانية » (١٥٧٨ — ١٥٨١) ، ثم جاءت ألمانيا فنشرت للخيور جولداست[4] مجموعته الخالدة المعروفة بـ « الملكية فى الدولة الرومانية » (١٦١١ — ١٦١٤) وتبعتها فى ذلك فرنسا ، فنشر أندريه

(١) E. Hall (١٤٩٨ — ١٥٤٧) مؤرخ إنجليزى يعتبر تاريخه المذكور فى المتن من المصادر الهامة لروايات شيكسبير التاريخية .

(٢) R. Holinshed (توفى حوالى ١٥٨٠) مؤرخ إنجليزى كتب تاريخاً مطولا لإنجلترا واسكتلنده وأرلنده ، وهو من المصادر الهامة لروايات شيكسبير التاريخية وكثير من الكتاب المسرحيين فى عهد الملكة إليصابات .

(٣) Robert Beal (؟ — ١٦٠١) فقيه إنجليزى نفى من إنجلترا لآرائه الدينية ، فطاف كثيراً من ممالك أوربا باحثاً عن الكتب النادرة مما مكنه من إعداد المجموعة النفيسة المذكورة فى المتن .

(٤) Melchior Goldast (١٥٧٨ — ١٦٣٥) فقيه ومؤرخ ألمانى .

دوشين[1] « مؤرخو التاريخ النرمندى » (١٦١٩) ثم « مؤرخو التاريخ الفرنجى » (ابتداء من ١٦٣٦) . ولكن أهم من أية مجموعة من هذه المجموعات الوطنية المحضة مجلدات تواريخ العصور الوسطى التى شرع فى إعدادها ونشرها من منتصف القرن السابع عشر علماء الرهبان البندكتيون من جماعة سنت مور[2] بباريز . وننوه بصفة خاصة بمجهود رجل عظيم منهم هو جان مابيلون[3] (١٦٣٢ — ١٧٠٧) الذى تعد رسالته (فى الشئون الدبلوماسية » (١٦٨١) فاتحة البحث العلمى للمخطوطات وبداية نشر وثائق العصور الوسطى على الوجه المرضى . وبينا جماعة سنت مور توالى إصدار الآثار المذكورة ، كان جان بوللند[4] فى نفس الوقت تقريباً قد أخذ ينشر فى عام ١٦٤٣ مجموعة « الأعمال المقدسة » وهى سلسلة ضخمة استغرق إصدارها قرنين ونصف قرن من الزمان ، وهى تسرد سير القديسين وأعمالهم (وأحياناً تتجاوز ذلك إلى معلومات أخرى) إشادة بقدر الكنيسة وإنعاشاً لخواطر الناس . وفى عام ١٦٦٣ أسس كلبير[5] الوزير الفرنسى القدير « المجمع العلمى للنقوش والأدبيات » فكان من ضمن أعماله الشروع فى طبع « مراسيم ملوك فرنسا » .

وقد شهد القرن الثامن عشر بداية سلاسل أخرى من المطبوعات

(١) André Duehesne (١٥٨٤ — ١٦٤٠) ويلقب بأبى التاريخ الفرنسى ، وذلك لمجموعاته العظيمة الخاصة بالتاريخ الفرنسى .

(٢) St. Maur (٣) Jean Mapillon.

(٤) Jean Bolland (١٥٩٦ — ١٦٦٥) مؤرخ دينى يسوعى من أهل الأراضى المنخفضة .

(٥) Colbert. (١٦١٩ — ١٦٨٣) .

نذكر من بينها المجلدات الخمسة والعشرين التى أجاد موراتورى[1] اختيارها ونشرها بعنوان « كُتّاب الشؤون الإيطالية » (١٧٢٣ — ١٧٥٠) ، ثم الثلاثة والعشرين مجلداً التى تتألف منها « مجموعة مؤرخى الغال وفرنسا » (ابتداء من ١٧٣٨) وقد نشرها بوكيه[2] . أما إنجلترا فقد تخلفت كثيراً وراء الدول الأوربيـة الأخرى فى أمر العناية بوثائقها القديمة . نعم إن حكومتها نقدت توماس رَيمر[3] المال الذى مكنه من إعداد مجموعته المسماة « فيديرا » (١٧٠٤ — ١٧٣٥) ولـكنها لم تؤلف لجنة خاصة تدرس بوجه عام حقيقة مستنداتها وأقسامها إلا فى عام ١٨٠٠ . إلا أن جهود الأفراد وحماسة بعض الخواص كانت فى أثناء ذلك قد مهدت السبيل فى هذا الصدد إلى حد ما . فنشر وليم دَجديل[4] مجموعته « الأديار الإنجليزية » (١٦٥٥ — ١٦٧٣) وتوماس مادُكس[5] مجموعته « تاريخ المالية الإنجليزية » (١٧١١) وإدمند جبسن[6]

(١) Muratori. (١٦٧٢ — ١٧٥٠ مؤرخ إيطالى يلقب بأبى التاريخ الإيطالى بجمعه المجموعة المذكورة فى المتن .

(٢) Bouquet. (١٦٨٥ — ١٧٥٤) راهب بندكتى قام بالمجموعة المذكورة فى المتن بناء على اقتراح الوزير كلبير .

(٣) Thomas Rymer. (١٦٤١ — ١٧١٣) مؤرخ ملـكى إنجليزى ومجموعته عبارة عن وثائق المحالفات والمعاملات التى تمت بين إنجلترا والدول الأخرى ابتداء من عام ١١٠١ وقد أتمها بعد ريمر مساعده سندرسن ووصل بها إلى عام ١٧٣٥ .

(٤) William Dugdale. (١٦٠٥ — ١٦٨٦) أثرى إنجليزى اشتهر بمجموعته المذكورة فى المتن Monasticon .

(٥) Thomas Madox. (١٦٦٦ — ١٧٢٧) أثرى وفقيه إنجليزى أشهر آثار مجموعته المذكورة فى المتن .

(٦) Edmund Gibson. (١٦٦٩ — ١٧٤٨) عالم دينى وفقيه إنجليزى .

مجموعة « قوانين الـكنيسة الإنجليزية » (١٧١٣) وتوماس هيرْن[1] مجموعة « التآريخ » وديفيد ويلـكنز[2] مجموعتـه « مجامع بريطانيا العظمى الدينية » (١٧٣٧) ، ونشر فارلى[3] كتاب « مسح الأرضين » (١٧٨٣) . وكانت هذه الجهود مما عمل على نفى معرة التقصير والقصور عن علم العاديات الإنجليزى وتدارك ما فات الحـكومة الإنجليزية من جراء تهاونها .

ويمكن القول على وجه العموم إنه عند ما افتتح القرن التاسع عشر كان الغرب قد تهيأ لقيام مدرسة علمية من المؤرخين . ذلك بأن جمهورية الآداب الناشئة المتشبعة بروح النقد الجديد المستفاد من دراسة الطبيعة كانت قد سئمت خرافات ألبست ثوب الواقع ، ودعايات قنعت بقناع الحقيقة ، ونوادر كان يصرح بأنها تمثل الفلسفة . أما العيوب التى يؤخذ بها التأريخ فى ذلك العهد ، أى مفتتح القرن التاسع عشر ، فأهمها أمور ثلاثة : (١) خطأ فى القصد ، (٢) نقص فى التصور ، (٣) عجز فى الطريقة.

(١) فأما أن القصد كان خطأ فذلك لأن التاريخ قلما كان يدرس لذاته ، بمعنى أنه إنما كان يدرس ويستغل لتأييد ما هو أجنبى عنه من الصوالح السياسية أو الدينية ، لا ابتغاء الوصول إلى الحقيقة فى أحداث الماضى الخطيرة من حيث عللها ووصفها ونتائجها . فحتى ڤولتير لم يتورع

(١) Thomas Hearne. (١٦٧٨ — ١٧٣٥) أثرى إنجليزى نشر مجموعة تآريخ إنجليزية قديمة نفيسة .

(٢) David Wilkins. (١٦٨٠ — ١٧٤٥) مستشرق إنجليزى قديم ، كان أستاذاً للغة العربية بكمبردج

(٣) Farley .

عن تسخير علمه فى مناوأة رجال الدين ، وحتى الفيلسوف هيوم لم يقو على ألا يكون كتابه «تاريخ إنجلترا» مجرد نشرة مسهبة من نُشَر حزب المحافظين . ولقد بلغ الأمر بأمرسن[١] الأمريكى صديق توماس كارليل أن قال عن علماء الإنجليز : « إنهم حتى عندما يتناولون تاريخ الرومان واليونان فإنهم يهبطون به إلى مستوى الصحافة الحزبية الإنجليزية » وقد سوغ هـذا النقد ما عرف به ميتفُرد[٢] من انحراف صريح عن الديمقراطية ، وما عرف عن جروت[٣] من ميول جمهورية ظاهرة . ولقد كانت محافظة أليسون[٤] تحكى فى وضوحها وصراحتها ما عرف بعد عن مكولى[٥] من نزوع إلى مبادىء حزب الأحرار سواء بسواء .

(٢) وأما أن التصور كان ناقصاً ، فذلك لأن المؤرخين كانوا مسرفين فى نزعتهم المحلية ، مسرفين فى عصبيتهم الطائفية ، مسرفين فى أخذ الناحية الفردية من التاريخ ، مسرفين فى نظرهم السطحى إلى الأمور .

---

(١) R. W. Emerson (١٨٠٣ — ١٨٨٢) كاتب وشاعر أمريكى مشهور عرف ببلاغة الأسلوب وبنزوعه نحو المثل الأعلى فى حياته .

(٢) Mitford (١٧٤٤ — ١٨٢٧) مؤرخ إنجليزى ملكى النزعة ، وقد تأثر بذلك فى كتابه « تاريخ اليونان » .

(٣) Grote (١٧٩٤ — ١٨٧١) هو مؤرخ اليونان الإنجليزى الأكبر . كان جمهورى الميل وظهر أثر ذلك فى تاريخه لليونان .

(٤) Alison (١٧٩٢ — ١٨٦٧) مؤرخ إنجليزى كتب تاريخاً ضخماً لأوربا الحديثة تأثر فيه بآراء المحافظين السياسية .

(٥) Macaulay (١٨٠٠ — ١٨٥٩) كاتب ومؤرخ سياسى إنجليزى . عرف بقوة الأسلوب وامتلاك ناصية اللغة ، ولكنه كمؤرخ لا يوصف بالاعتدال فى الحكم على الأشخاص والأعمال . وقد تأثر فى كتاباته التاريخية بتحيزه الظاهر إلى حزبه حزب الأحرار .

لقد كانوا مسرفين فى النزعة المحلية لأنهم كانوا يقصرون أنفسهم على دولة بعينها ، بل على إقليم بعينه ، غير عابئين بأوربا فضلا عن القارات الأخر من حيث هى كل لا يتجزأ . ولقد كانوا مسرفين فى العصبية الطائفية لأنهم قلما كانوا يتخطون دائرة الدين والسياسة المحدودة ، غافلين عما كان يجد فى ميادين الاقتصاد والاجتماع والعلم والفن من مؤثرات كثيراً ما كانت أجل خطراً من شؤون الدين والسياسة . وكانوا مسرفين فى أخذ الناحية الفردية من التاريخ لأنهم كانوا يعنون بالملوك والملكات والوزراء والقواد ، وفى الجملة كانوا يعنون بعظماء الرجال ، غاضين النظر عن أحوال الجماهير لأنها كانت فى اعتبارهم أقل من أن يعرجوا عليها ويقفوا عندها ، مع أن المعلوم أن هؤلاء السادة المسوّدين إنما يشرعون لهذه الجماهير ويذودون عن حياضها ، وأن على كد هذه الجماهير وجهودها يدور نظام العالم بأسره . ولقد كانوا مسرفين فى النظر السطحى إلى الأمور لأنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى الخفى المستتر وراء ظواهر الأخبار الخاصة والقصص العامة من أفكار وعواطف وعزائم هى القوى الحافزة إلى العظائم المسطورة .

(٣) هذا ولقد كانت الطريقة عاجزة قاصرة لأن المؤرخين سلموا بكثير من الأخبار على أساس الوثوق والتصديق دون نقد أو تمحيص ، ولأنهم لم يعنوا العناية الكافية بجمع المصادر الأساسية ، وما كان منها فى متناول أيديهم فإنهم لم يناقشوه وينقدوه ليميزوا منه الحق من الباطل . والحق أن كل الأسس التى كان يقوم عليها التأريخ إذ ذاك كانت معيبة

وعرضة للتظنن والاتهام .

يؤرخ قيام المذهب الحديث فى النقد التاريخى من نشر ل . س . ف . ا . ولف[1] « مقدمة هوميروس » فى عام ١٧٩٥ . وهذه المقدمة لم تكن بطبيعة الحال بحثاً تاريخياً ، وإنما كانت بحثاً أدبياً لغوياً يقرر رأياً حديثاً مؤداه أن الألياذة والأوديسية لم يكتبهما هوميروس ولا رجل آخر (كما يعتقد لويس كرول[2]) مسمى بهذا الاسم ، ولكن تتابعت على نظمها جماعة من الشعراء فى فترات متباعدة من الزمن . وقيمة المقدمة المذكورة من حيث التاريخ تنحصر فى أنها برهنت على أن من الممكن أن تستنبط معلومات هامة خطيرة من الوثائق القديمة متى أقبلنا على دراستها بعقول حذرة وعيون يقظى . وبذلك كانت هذه المقدمة مصدقة لما قاله لورنزوڤلا منذ ثلاثمائة سنة خلت وأعاده مابيلون فى القرن السابع عشر . ثم إن التأثير الذى أحدثته مقالة ولف الثورية فى البيئات العلمية حمل تلميذه أوغست بوخ[3] على أن يجرب طريقة أستاذه فى المواد التاريخية ، فوصل إلى نتائج طريفة وإن تكن غير رائعة ، ضمنها كتابه « الاقتصاد السياسى فى أثينا » (١٨١٧) . على أن تأثير ولف فى

(١) C. F. A. Wolf (١٧٥٩ — ١٨٢٤) هو أستاذ وعالم لغوى ونقاد ألمانى ، اشتهر ببحثه المذكور فى المتن .

(٢) Lewis Carroll هو الاسم المستعار لدودجسن Dodgson الرياضى الإنجليزى (١٨٣٢ — ١٨٩٨) المؤلف لكثير من كتب الرياضة وقصص الأطفال .

(٣) August Böckh (١٧٨٥ — ١٨٦٧) عالم ألمانى متخصص فى اليونانية واللاتينية . وأهم كتبه كتابه المذكور فى المتن .

بوخ كان دون تأثيره فى نيبوهر[1] مؤرخ الرومان القدماء . فقد دفعت حرارة النقد الجديد نيبوهر إلى استخدام طريقة ولف فى درس دقيق لنصوص ليڤى وغيرها من مصادر التاريخ الخرافى للجمهورية الرومانية . فلم تثبت الخرافات التى شحنت بها كتب كثير من الكتاب حتى الشكاكين منهم أمثال مكياڤلى ومونتسكيو على تحليله الهادم بل تطايرت وذهبت جفاء تاركة وراءها راسبا يسيرا من الحقيقة الثابتة لا يكاد يعرف من شدة ضآلته . من أجل ذلك كان صحيحاً ما قاله الدكتور جوتش[2] من أن نيبوهر « أحيا التاريخ الرومانى وبوأ التاريخ نفسه مكانة علم مستقل من الطراز الأول » . على أن مذهب النقد الذى وضعه ولف واتبعه نيبوهر قد اعتنقه بتصرم القرن التاسع عشر علماء لا يحصون كثرة فى شتى الأقطار ، ونكتفى هنا بأن نورد أسماء نخبة من مشاهيرهم . فألمانيا التى هى مهد فن التأريخ الحديث قد شهدت السواد الأعظم من أتباع هذا المذهب وحملة لوائه . يتزعم هؤلاء فى سهولة ويسر ليوپولدڤون رنكى الذى يقول الدكتور جوتش إنه « زعيم المؤرخين فى الأزمنة الحديثة غير منازع » وإنه « لم يظهر قط مؤرخ أقرب منه إلى المؤرخ المثالى » . لقد كان ظاهراً بعدالته ونزاهته ، وقد جعل أول غرضه أن يصل بالدقة إلى

(١) B. G. Niebuhr (١٧٧٦ — ١٨٣١) سياسى ومؤرخ ألمانى اشتهر بكتابه « تاريخ الرومان » ، وقد نهج فيه منهجاً علمياً مبتكراً فكان بذلك من المؤرخين القلائل الذين رقوا التاريخ الرومانى خاصة والبحث التاريخى عامة .

(٢) G. P. Gooch (١٨٧٣ —) مؤرخ إنجليزى لا يزال على قيد الحياة ، وقد اشتهر بتآليفه فى التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر .

معرفة الحوادث وكيفية حدوثها . ثم إنه عمر طويلا ودأب كثيراً وطرق موضوعات شتى تتصل بإيطاليا وتركيا وإسپانيا والصرب والبابوية والإصلاح الدينى وفرنسا وإنجلترا فى القرن السابع عشر وغير ذلك ، فلما بلغ الخامسة والثمانين وعجز عن المطالعة والكتابة أملى تاريخا عاما كان أتم منه سبعة مجلدات (وصل فيها إلى القرن الثانى عشر) عندما انطفأ سراج حياته فى عام ١٨٨٦ بالغاً من العمر إحدى وتسعين سنة . وقد أتمت التاريخ المذكور عصبة وفية نبيلة من تلاميذه أشهرهم ڤايتز[١] وجيز برخت[٢] وسيبل[٣] . أما فى مجال الدراسات الرومانية فإن تاج نيبوهر غدا معقودا على مفرق المؤرخ القدير تيودور ممسن (١٨١٧ — ١٩٠٣) وسنعرض له بعد قليل .

أما فرنسا فقد افتتح مذهب النقد الحديث فيها بتأسيس « مدرسة الوثائق »[٤] فى عام ١٨٢١ ، إلا أن المدرسة المذكورة خمل شأنها فى السنوات الأولى من حياتها حتى ليمكن القول بأنها أسست من جديد فى عام ١٨٢٩ ، وقبل انتصاف القرن التاسع عشر كانت قد غدت نهائياً المركز الرئيسى للدراسات البليوغرافية والديلوماسية فى أوربا بأسرها .

(١) Waitz مؤرخ ألمانى كبير من أهل القرن التاسع عشر متخصص فى تاريخ ألمانيا .

(٢) Giesebrecht (١٨١٤ — ١٨٨٩) مؤرخ ألمانى كتب تاريخاً لألمانيا فى العصور الوسطى على النمط العلمى الحديث .

(٣) Sypel (١٨١٧ — ١٨٩٥) مؤرخ ألمانى يعتبر أعظم تلاميذ رنكى كتب فى تاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ ألمانيا الحديثة كتباً عظيمة القيمة .

(٤) Ecole des Chartes .

ومن أقدم تلاميذها بنيامين جِرارد[١] (١٧٩٧ — ١٨٥٤) ، ولويس كيشرات[٢] (١٨١٤ — ١٨٨٢) ، وليوپولد دليل[٣] (١٨٢٦ — ١٩١٠) ، وقد رفع هؤلاء بما كتبوا فى شتى نواحى التاريخ الفرنسى فى العصور الوسطى مستوى البحث العلمى الدقيق . وسار على نهج هؤلاء الرواد عصبة متزايدة من التابعين المعروفين بالقدرة العلمية ، نخص منهم بالذكر جبريل مونود[٤] ، وأوغست مولينير[٥] ، وآرتور جيرى[٦] ، وجوليان هاڤت[٧] ، وفوستل ده كولنج ، وبول ڤيوليه[٨] وآشيل لوشير[٩] .

وسرت عدوى الدقة والضبط من فرنسا وألمانيا إلى إنجلترا ، إلا أن الأمة الإنجليزية كان ضميرها قد تنبه يريد الحركة قبل أن يتأدى نفوذ القارة الأوربية إليها . فهنرى هلام[١٠] (١٧٧٧ — ١٨٥٩) الذى نعتبره الآن من هواة التاريخ ، قد أظهر فى كتابيه « حال أوربا فى العصور الوسطى » (١٨١٨) و « تاريخ إنجلترا الدستورى » (١٨٢٧) علماً واسعاً ، وجهداً جاهداً ، ونزاهة عالية ، وأسلوباً هو بحق الأسلوب التيوتونى الموصوف بجفافه وثقله . وأظهر منه تأثراً بالمثل الألمانية سير فرنسيس پلجريف[١١] (١٧٨٨ — ١٨٦١) ، وجون مِتْشِل كمبل[١٢]

(١) Benjamin Guérard .

(٢) Louis Quicherat .

(٣) Léopold Delisle .

(٤) Gapriel Monod .

(٥) Auguste Molinier .

(٦) Arthur Giry .

(٧) Julian Havet .

(٨) Paul Viollet .

(٩) Achille Luchaire .

(١٠) Henri Hallam .

(١١) Sir Francis Palgrave .

(١٢) John Mitchell Kemble .

(١٨٠٧ — ١٨٥٧) اللذان كانت كتاباتهما عن إنجلترا النرمندية والأنجلوسكسونية فاتحة عصر جديد للبحث العلمى فى إنجلترا . ثم جاء فى أثر هؤلاء الرواد جم غفير من العلماء اتصفوا بالحذق فى التخصص الذى نما فى قاعات البحث الألمانية والمدارس الفرنسية ، وأعادوا من جديد بحث سجلات التاريخ البريطانى بأسره . من أبعد هؤلاء صيتا وليم استبز[١] ، ومندل كريتون[٢] ، وصموئيل روزن جردينر[٣] ، وفردريك وليم ميتلند ، وتوماس فردريك تاوُت[٤] . ويقف إلى جانب هؤلاء وإن كان لا يكاد يعد منهم ، رجل عظيم الشأن هو لورد أكتن . فهو أوربى المحتد وإن كان بريطانى المولد ، لم تتقيد عبقريته العالمية وإطلاعه الفذ بزمان ولا مكان ، وكانت عباراته ترجمان العقلية النصرانية المثقفة .

أما أمريكا فسرعان ما تأقلمت فيها الدراسة العلمية الحديثة للتاريخ

---

(١) William Stubbs (١٨٢٥ — ١٩٠١) مؤرخ وأسقف إنجليزى ، اشتهر بكتابه « تاريخ إنجلترا الدستورى » الذى لم يفقه كتاب آخر فى موضوعه حتى اليوم .

(٢) Mandell Creighton (١٨٤٣ — ١٩٠١) مؤرخ وأسقف إنجليزى اشتهر بتاريخه للبابوية خاصة . واشترك مع بعض كبار المؤرخين فى إصدار المجلة الإنجليزية التاريخية .

(٣) Samuel Rawson Gardiner (١٨٢٩ — ١٩٠٢) مؤرخ إنجليزى اشتغل بتاريخ إنجلترا خاصة ، وله فيه عدة كتب قيمة . وهو يمتاز ببساطة الأسلوب وعدالة الحكم .

(٤) Thomas Frederick Tout (١٨٥٥ — ١٩٢٩) مؤرخ إنجليزى ، له عدة تآليف من أهمها كتابه فى « العلاقات بين فرنسا وإنجلترا فى العصور الوسطى والوقت الحاضر » .

تحت تأثير النفوذ الألمانى . فحتى جورج بنكروفت[١] ذلك الكاتب المتفنن الذى يجمع النقاد المنصفون على شدة تحيزه فى كتابه « تاريخ الولايات المتحدة » قد أخذ عن هيرن وظفر بصداقة رنكى . على أن الروح الحقيقى لهيرن ورنكى لم يتجل فى التأريخ الأمريكى ويلهمه إلا عند ما أخذ هنرى ترّى[٢] يحاضر فى جامعة هارفارد فى حدود عام ١٨٥٧ وفرنسيس ليبر[٣] فى جامعة كولمبيا ، وأندرو هوايت[٤] فى جامعة ميتشيغان . ومن البواعث القوية على الاشتغال بالبحث التاريخى الحر تعيين هـ . ب . أدمز[٥] لأول تخرجه فى جامعة هيدلبرج للتدريس فى جامعة جونز هوبكنز عام ١٨٧٦ وتأسيس ج . و . برجس[٦] فى عام ١٨٨٠ كلية العلوم السياسية الشهيرة

---

(١) George Bancroft (١٨٠٠ — ١٨٩١) ، مؤرخ وسياسى أمريكى . ويعتبر أكبر مؤرخى الولايات المتحدة . تأثر بمذهب هيرن فى النقد التاريخى . وكان يعنى بأسلوبه عناية شديدة . أكبر تآليفه « تاريخ الولايات المتحدة » ويقع فى بضعة مجلدات .

(٢) Henri Torrey .

(٣) Francis Lieber (١٨٠٠ — ١٨٧٢) مؤرخ ألمانى الأصل والمنشأ ، أمريكى الدار والمقام ، اشترك فى واقعة واترلو ، وفى عام ١٨٢٧ هاجر إلى الولايات المتحدة وعين أستاذاً للتاريخ بكلية كولمبيا . وله من التآليف « الحرية المدنية والحكم الذاتى » — Civil Liberty and Self - Government.

(٤) Andrew White (١٨٣٢ — ١٩١٨) هو مرب ودبلوماسى ومؤرخ أمريكى . وإلى جهوده الخاصة يرجع الفضل الأكبر فى إنشاء جامعة كورنل بنيويورك ، وله بحوث تاريخية قيمة بعضها فى الصراع بين العلم واللاهوت فى العالم المسيحى .

(٥) H. B. Adams (١٨٥٠ — ١٩٠١) مرب ومؤرخ أمريكى . كان أستاذاً للتاريخ فى جامعة جونز هوبكنز . ومن كتاباته التاريخية « طرائق الدراسة التاريخية » Methods of Historical Study.

(٦) J. W. Burgess .

فى جامعة كولمبيا بنيويورك على مثال نظيرتها فى برلين . ويطول بنا القول لو مضينا نعدد أسماء من تخرجوا على هؤلاء الأساتذة من مؤرخى الجيل الأمريكى الناشئ ، كما يطول لو حاولنا استقصاء المؤرخين الذين نبغوا حديثاً فى الممالك الأوربية . فنكتفى بأن نورد أسماء رواد التاريخ الحديث ، كل فى بلده الخاص . فمن هؤلاء[1] أرنت فى النمسا ، وبَلَكى فى بوهيميا ، ومَرزالى فى المجر ، وفيلارى فى إيطاليا ، والتميرا فى إسبانيا ، وكرفلهو فى البرتغال ، وكُپْ فى سويسرا ، وبيرن فى بلچيكا ، وفروين فى هولندا ، واشتينشتروب فى الدانمركة ، وجيجر فى السويد ، وكيزر فى النرويج ، وسولوڤيف فى روسيا ، ولِلول فى بولونيا ، وباباريجوبولوس فى اليونان . نعم إن بعض هؤلاء الجهابذة خلط نمير العلم الصافى بصهباء الوطنية المسكرة ، ولكنهم فى جملتهم أبلوا بلاء حسناً فى تخليص التاريخ من شوائب الجهالة والباطل والدعاية والهوى .

كان من أول الأمور الجسام التى عنى المؤرخون العلميون بها ، وثنوا أعنة نشاطهم إليها ، أن يجمعوا ، ويقسموا ، ويبوبوا ، وينشروا بالتدريج الركام المركوم فى مكاتب أوربا ودور محفوظاتها من مواد للتاريخ غُفلٍ من بين مهملة ومخبوءة معاً . ولقد استطاع أولئك المؤرخون أن يحصلوا فى معظم البلدان من حكوماتها على مساعدتها وعلى بعض المال اللازم لتلك المهمة بمس وتر الوطنية ولفت كل حكومة إلى ما كان غيرها من الحكومات

(١) Arneth ، Palacky ، Marzali ، Villari ، Altamira ، Carvalho ، Kopp ، Pirenne ، Fruin ، Steenstrup ، Geijer ، Keyser ، Soloviev ، Lelewel ، Paparrigopoulos .

يعمله (أو يعد بعمله) . وأول ما نشر فى القرن التاسع عشر من المجموعات العظيمة بعامل النفور من الثورة ورد فعل المذهب الابتداعى ، وكان كلاهما إذ ذاك فى عنفوانه ، هو مجموعة بتيتو[1] المعروفة بـ « مجموعة مذكرات تتصل بتاريخ فرنسا » ابتدئ فيها عام ١٨١٩ وفرغ منها عام ١٨٢٩ ، وقد نشر منها إذ ذاك ما لا يقل عن مائة وثلاثين مجلداً . وفى نفس العام الذى شهد بداية سلسلة بتيتو الفرنسية أسس اشتاين[2] السياسى الوطنى البروسى فى ألمانيا « جمعية دراسات التاريخ الألمانى » وهى جمعية اعتزمت أن تجمع وتحرر وتنشر سلسلة عظيمة تتصل بتاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى وتعرف بـ « أصول التاريخ الألمانى القديم[3] » وقد رسمت خطة هـذا المشروع على أن يتألف من خمس مجموعات كل منها قائم بنفسه . وتلك المجموعات الخمس هى : (١) الكُتّاب (٢) القوانين (٣) المراسيم الإمبراطورية (٤) الرسائل (٥) متفرقات . إلا أن العمل الجدى فى السلسلة المذكورة تأخر بضع سنوات لعدم كفاية محررها الأول ، ثم وجدت الجمعية فى عام ١٨٢٢ مديرا مثاليا فى ج . ه . برتز[4] . الذى ظل زهاء خمسين عاما مضطلعاً بالعبء الملقى على كاهله . وقد ظهر المجلد الأول من « الكتّاب » فى عام ١٨٢٦ ، كما ظهر المجلد الأول من « القوانين » فى عام ١٨٣٥ ،

(١) Petitot (١٧٧٢ — ١٨٢٥) أديب فرنسى اشتهر بمجموعته المذكورة فى المتن .

(٢) Stein (١٧٥٧ — ١٨٣١) هو السياسى الوطنى البروسى المشهور فى تاريخ أوربا فى العهد النابليونى .

(٣) Monumenta Germaniae Historica .

(٤) G. H. Pertz .

وقبل أن يعتزل برتز العمل (وقد خلفه ڤايتز) كان قد أشرف على نشر ما لا يقل عن خمسة وعشرين مجلدا فاخرة تمثل أرقى ما وصل إليه علم العصور الوسطى . وكان يعاصر اشتاين فى فرنسا الوزير الأورليانى الشهير ف . ب . ج . جيزو [1] ، وهو مؤرخ نابه القدر وضع كتاباً فى « تاريخ الحضارة » يمتاز بسعة تعميماته وعلو أسلوبه . فمنذ ما كان وزيراً للمعارف العمومية اقتدى باشتاين فكوّن فى عام ١٨٣٤ « جمعية تاريخ فرنسا » وكان أول رؤسائها بارنت المؤرخ الابتداعى لآل برغندية . وقد نشرت سلسلة مجلدات فى مصادر التاريخ الفرنسى بلغت حتى الآن أكثر من ثلثمائة وخمسين مجلداً . وإلى جانب هذه الجمعية أنشأ جيزو لجنة فرعية لنفس وزارة المعارف العمومية شرعت تنشر على حساب الحكومة «مجموعة وثائق تاريخية فرنسية لم يسبق نشرها » ، وهى مؤلفة من مصادر لم تنشر من قبل ، وكثير منها مما يجل عن التقدير لنفاسته ، وقد بلغ ما نشر منها حتى الآن ٣٣٠ مجلداً . وعلى هذا المنوال شرعت البلجيك فى عام ١٨٣٦ تنشر محفوظاتها ، وإسپانيا فى عام ١٨٤٢ ، والنمسا عام ١٨٤٩ ، أما إنجلترا فظلت تظالع متخلفة وراء هؤلاء تخلفاً بعيداً . « فلجنة السجلات » التى ألفت عام ١٨٠٠ لم تزد على أن أقامت الدليل على فشلها التام . ثم بعد خمسين سنة من ذلك أخذ وليم استبز وآخرون من المؤرخين الجدد القلائل يرفعون صوتهم مناشدين الحكومة أن تكون فى الأمر أنشط وأكثر فطانة ، وكانت نتيجة هذه الصيحة أن أخذت « مصلحة المطبوعات

(١) F. P. G. Guizot (١٧٨٧ — ١٨٨٤) .

الرسمية » تنشر فى عام ١٨٥٧ تلك التقاويم النافعة المعروفة « بتقاويم الأوراق الرسمية » ؛ بل لقد بدئ فى نفس العام فى نشر سلسلة الطوامير النفيسة الخاصة بـ « تواريخ ومذكرات بريطانيا العظمى وإرلندة فى العصور الوسطى » ، وكانت عدة مجلداتها عند ما تمت فى عام ١٨٩٦ قد بلغت ٢٤٤ مجلداً . وفى عام ١٨٦٩ ألفت « لجنة المخطوطات التاريخية » ، لفحص وفهرسة مجاميع الوثائق الهامة التى كانت فى حيازة الأفراد والهيئات البلدية ، فشرعت تنشر سلسلة تقاريرها وملحقاتها التى لم تتم بعد . وفى أثناء ذلك كانت جهود اللجان المحلية والمحترفة أمثال « كمدن [1] » و« سلدن » و « هكلويت » و « سورتيز » و « شيتهام » قد أسدت إلى العلم منة مذكورة بتيسيرها على العلماء أمر الانتفاع بالسجلات القديمة . وإلى جانب تلك الكنوز القومية ينبغى أن نذكر مجموعات المواد الضخمة لتاريخ الكنيسة العام وبخاصة الـ ٣٨٢ مجلدا التى يشتمل عليها « تاريخ آباء الكنيسة » لمينى [2] (١٨٤٦ — ١٨٦٤) ومطبوعة ڤينا للآباء اللاتينيين (ابتداء من عام ١٨٦٦) و « طبعة برلين للآباء اليونانيين » (ابتداء من ١٨٩٧) و « السجلات البابوية » ليافى [3] وبوتهاست [4] (ابتداء من

(١) the Camden ، the Selden ، the Hakluyt ، the Surtees ، the Cheetham .

(٢) Migne (١٨٠٠ — ١٨٧٥) قسيس وناشر فرنسى نشر المجموعة المذكورة فى المتن (Patrology) .

(٣) Jaffé (١٨١٩ — ١٨٧٠) مؤرخ ألمانى محقق أصدر المجموعة المذكورة فى المتن .

(٤) Potthast (١٨٢٤ — ١٨٨٨) مؤرخ ألمانى عمل فى نشر « السجلات =

عام ١٨٥١) ، ثم مجموعة هِفِلى[١] وهرجنروثر[٢] العظيمة الخاصة بتاريخ المجامع الدينية (ابتداء من ١٨٥٥) .

ولقد بلغ من غزارة المادة التاريخية المتحصلة من لجان السجلات وتآليف خواص البحاث أن جهر فى العهد الأخير غير واحد من كبار الثقات بتخوفه أن تفوق وفرة الإنتاج طاقة المؤرخين على الاستهلاك . لقد أصبح من المتعذر من عهد بعيد على من يعانى التاريخ أن يحيط بجميع المادة الحديثة التى ترد عليه كل عام بل كل يوم من البحاث وأمناء المحفوظات . وأصبح نطاق التخصص فى التاريخ يضيق شيئاً فشيئا حتى ليوشك لفظ « المؤرخ » بمعناه العام أن يبطل استعماله جملة واحدة ، ويوشك بمعناه الخاص « كمؤرخ الكنيسة » و « المؤرخ الاقتصادى » أن يزداد تخصصا ، وحتى ليخشى ألا يقوم على مر الزمن مؤرخ يهضم العلم الحديث ويصوغ منه فلسفة للتاريخ على وجه ما ، ويحلق فوق الغابة فيتبين صورتها على كثرة ما بها من أشجار متنوعة لا ينالها الحصر .

= البابوية » ths Papal Regesta ووضع كذلك « مكتبة تاريخ العصور الوسطى » التى تشتمل على أسماء مؤرخى العصور الوسطى وكتاباتهم .

(١) Hefele (١٨٠٩ — ١٨٩٣) عالم لاهوتى ألمانى كاثوليكى نشر تاريخ المجامع الدينية Conciliengeschichte .

(٢) Hergenröther (١٨٢٤ — ١٨٩٠) كان مثل صاحبه هفلى ألمانيا عالما باللاهوت وكاثوليكيا وله تآليف شتى فى تاريخ الكنيسة .

الفصل السادس

رواد التاريخ الحديث

تأثير الفلسفة الوضعية — جهود كنت وبكل وميل وآخرين فى رد التاريخ إلى مرتبة العلم الطبيعى — مقاومة كنجزلى وفرود ودرويسن وآخرين .

كان يصاحب تقدم الطريقة العلمية ، ونمو الروح البرىء من الهوى ، وتجمع المواد التاريخية ، تغير هام طرأ على تصور المؤرخين للتاريخ ووظيفته . فإنه عند ما كان التاريخ معتبراً شعبة من شعب الأدب ، أو خرافة بلغت حد النضج والتمام كما وصفها بعضهم ، كان المؤرخون يرون أنفسهم أعلى من أن يعنوا بغير آمال وآلام الملوك والسادات ، وأفعال القواد ، وحيل الوزراء . وبذلك كاد التاريخ يحقق المثل الأعلى الذى نزع إليه كرلايل ، والذى يجعل التاريخ لا يكاد يخرج عن كونه مجموعة من السير المختارة . والحق أنه لم يبلغ أحد شأو كرلايل ، آخر الابتداعيين ، فى تخليد التصور البيوغرافى للتاريخ ، وذلك بما دبجته يراعته من مديح للأبطال وتمجيد لفردريك الكبير وتسبيح بحمد كرمول وتحقير صريح للعامة المغمورة العاطلة عنده من المحامد والخلال ؛ إلا أن كرلايل كان يدير رحى معركة خاسرة ، وكان هو على علم بذلك (علمه بمزاجه الصفراوى) بدليل حملاته المنكرة التى حملها فى بعض مقالاته[١] على الديمقراطية الآخذة فى الظهور .

(١) مثل مقاله Shooting Niagara الذى كتبه منددا بالروح الذى كان يسود =

لقد كان تقدم الديمقراطية ، وذيوع الاشتراكية وبدو القلق الاقتصادى ، وحركات شعبية أخرى ظهرت منتصف القرن التاسع عشر ، مما أفضى إلى قيام تصور جديد للتاريخ . ولا أدل على ذلك من أن مؤرخين أمثال روشر [١] فى ألمانيا ؛ وأفنل [٢] فى فرنسا ، ومكولى فى إنجلترا ، مدوا نطاق بحثهم وحاولوا أن يضمنوا تواريخهم العامة حياة الشعوب بمناحيها المتعددة . على أن التجارب سرعان ما دلتهم على أنه لكى يصل المؤرخ إلى نتيجة ما ، فعليه أن يتخصص فى ناحية بعينها ، خذ لذلك مثلا مكولى فإنه أنشأ يكتب تاريخاً لإنجلترا فى الفترة الواقعة بين عامى ١٦٨٨ و ١٧٦٠ ولكنه لم يتجاوز عام ١٧٠٠ بعد أن كتب خمسة مجلدات نشرت فيما بين عامى ١٨٤٩ و ١٨٦١ ، وقد رؤى أنه لكى يتم مشروعه الأصلى بهذه النسبة فلا بد من مداومة العمل مائة سنة أخرى وإصدار أربعين مجلداً فوق الخمسة التى نشرت فعلا . ويتجلى تحقق مبدإ وجوب التخصص والتركيز فى إنجلترا فى العالمين اللذين تزعما حركة التاريخ فى أواسط العهد الفكتورى وهما ا . ا . فريمان [٣] وجون سيلى [٤] فقد أخرجا من دائرة

= «مشروع قانون الاصلاح» ، المقدم إلى البرلمان الانجليزى سنة ١٨٦٦ .

(١) Roscher ، من مؤرخى ألمانيا فى القرن التاسع عشر ، وأحد تلاميذ رنكى الذين أخذوا عنه فى قاعة بحثه Seminar .

(٢) Avenel مؤرخ فرنسى عاش فى القرن التاسع عشر ، من أهم كتبه دراسته لريشليو .

(٣) E. A. Freeman (١٨٢٣ — ١٨٩٢) ، مؤرخ إنجليزى أهم كتبه « تاريخ الفتح النرمندى » ، وكان يرى فى التاريخ الأوربى وحدة تقوم على تاريخ رومية .

(٤) John Seeley (١٨٣٤ — ١٨٩٥ ، مؤرخ إنجليزى من أهم كتبه « سيرة اشتاين » الوزير البروسى الشهير ،

البحث التاريخى فى عنف وشدة كل ما لا يمت إلى السياسة بسبب ، وأصبح شعار مؤرخى ذلك الزمان قولهم « إن التاريخ سياسة الماضى ، والسياسة تاريخ الحاضر » . ولم ير ذوو الجد منهم من المصادر ما يستحق عنايتهم سوى الأوراق الرسمية . إلا أن هذا التصور الضيق الذى رد التاريخ مجرد مادة يستعان بها فى إعداد النشء لعضوية البرلمان ، قد أعلن لورد أكتن الثورة عليه بشكل رائع فى محاضرته الافتتاحية المشهورة التى ألقاها فى يونيه من سنة ١٨٩٥ إذ قال : « إن اختصاصنا يتناول ما هو أبعد مدى من شؤون السياسة ، وهو غير خاضع لتشريع الحكومات . إن من واجبنا أن نحيط بحركات الأفكار التى هى علة الحوادث العامة لا نتيجتها ، وأن نجعلها نصب أعيننا دائماً » . بهذا المبدأ الذى أعلن على هذا النحو قصر لورد أكتن المحاضرة الأولى من سلسلة محاضراته العظيمة الخاصة بالثورة الفرنسية على الحركات الفكرية التى رأى الثورة نجمت عنها فى القرن الثامن عشر . إلا أن نزعة لورد أكتن العقلية العميقة ، بل الروحانية ، (ويماثلها عند دولنجر [١] الألمانى توكيده ما للدين من قوة مؤثرة فى التاريخ) قد استتبعت هى الأخرى رد فعل لها . إذ قامت مدرسة الاشتراكيين من أتباع كارل مركس [٢] فقالت بالتصور الاقتصادى أو

(١) Döllinger (١٧٩٩ — ١٨٩٠) لاهوتى ومؤرخ دينى ألمانى ، ثارت خصومة عنيفة بينه وبين البابوية من أجل العقيدة القائلة بعصمة البابا ، ومن كتاباته التاريخية « دراسات فى التاريخ الأوربى » .

(٢) Karl Marx (١٨١٨ — ١٨٨٣) ، الفيلسوف والاقتصادى الألمانى الكبير صاحب كتاب « رأس المال » .

المادى للتاريخ ودعت إليه . ثم إن ما للعقل الباطن من سلطان قوى ، وما للطبيعة البشرية والجماعات المنظمة من الدوافع الغريزية ، كل ذلك أعلنته مدرسة قوية من علماء النفس الاجتماعيين بزعامة كارل لمبرخت[1] الألمانى . أما فى وقتنا الحاضر ، فمتفلسفة المؤرخين ومفكروهم يعترفون بأن عاملاً واحداً لا يستقل بتفسير ما المجتمع الإنسانى من ظواهر متعددة وأن لكل من الخلق والبيئة نصيباً من ذلك التفسير خاصاً به ، وأن لا الجبر ولا الاختيار يعطينا بمفرده كل الحق من حيث بيان مصدر أعمال الإنسان ، وأن الأفكار والدوافع الغريزية والروح والجسم كل أولئك حقائق نهائية لا يتأتى التعبير عن بعضها بنفس الألفاظ التى يعبر بها عن بعضها الآخر .

وعلى الرغم مما كان بين مؤرخى القرن التاسع عشر من خلاف فى تصور التاريخ فإنهم كافة وجدوا فى المبدإ العظيم ، مبدإ النشوء ، الذى جاءهم من عالم العلم والفلسفة ما وحد أعمالهم وبث فيها الحياة .

لم تكن فكرة النشوء ، وهى أساس تفكير القرن التاسع عشر فكرة جديدة بحال من الأحوال . ذلك بأن تصور العلماء شؤون هذا العالم على أنها عملية نمو وتكشف تدريجى معارضة لفكرة أخرى تصورها على أنها تعاقب محدثات يقوم بعضها على أنقاض بعض ولا ارتباط بين بعضها وبعض ، نقول إن هذا التصور قديم قدم أرسطو نفسه ، وأنه كان

---

(١) Karl Lamprecht (١٨٥٦ — ١٩١٥) مؤرخ ألمانى كان أستاذاً بجامعة ليبزج . من أهم كتبه «تاريخ ألمانيا» وكتاب آخر عنوانه « ما التاريخ ؟ » .

من غير شك من جملة الفوارق العديدة بين فلسفته وفلسفة سلفه العظيم أفلاطون . غير أن الفكرة كان ينقصها أن تحرر وتحقق فى ميدان العلم الطبيعى على نحو ما كان يعرفه القدماء ، ومن ثم بقيت افتراضاً محضاً ، وظلت كامنة فى مذهب وحدة الوجود الرواقى حتى انبثاق فجر العصور الوسطى ، ثم عبرت آلف سنة وهى مغمورة بكشف[1] أغسطين ومدرسته ، ثم انبعثت مرة أخرى كغيرها من آراء القدماء إبان النهضة ، وكان أشهر من فطن لها جيوردانو برونو[2] الذى جرت عليه كثرة الخطأ فى الحكم أن أحرق حياً فى رومية عام ١٦٠٠ . ومن ذلك الوقت لم تغب فكرة النشوء بصفة مطلقة عن التفكير الأوربى . ومن الذين يلحظ فى تآليفهم أثر وجودها ونفوذها اسبينوزا[3] ولوك[4] وفيكو (خاصة) وليبنز[5]

---

(١) Transcendentalism والمراد بها البحث فى المعرفة التى يصل إليها الإنسان بالبداهة a priori لا المكتسبة بالتجارب a posteriori .

(٢) Giordano Bruno (١٥٤٨ — ١٦٠٠) فيلسوف إيطالى . كان فى أول الأمر راهباً دومينيكيا ولكنه هاجم بعض عقائد النصرانية ، فأخرج من إيطاليا ، فجعل يتجول فى ممالك أوربا ويؤلف الكتب التى يهاجم فيها النصرانية بوجه عام . مما أدى فى النهاية إلى محاكمته أمام محكمة التفتيش برومية وإعدامه إحراقاً بالنار .

(٣) Spinoza (١٦٣٢ — ١٦٧٧) ، فيلسوف يهودى هولندى ، عرف باستقلال الفكر ونقد مصادر البحث ولو كانت التوراة والإنجيل ، وقد جر ذلك عليه الاضطهاد الشديد . كتب كثيراً فيما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة ، وهو معدود من الأقطاب الذين رفعوا منار الفلسفة والنقد العالى فى العصر الحديث .

(٤) Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤) فيلسوف إنجليزى كبير ، كتب فى أصول الحكم والاقتصاد والدين والتربية والفلسفة بحوثاً كبيرة لا تزال مرجع البحاث فى هذه الموضوعات .

(٥) Leibniz (١٦٤٦ — ١٧١٦) فيلسوف ورياضى ألمانى . كتب فى السياسة والرياضيات والفلسفة كتباً قيمة .

ولسنج[١] . على أن فـكرة النشوء لم تتبوأ مكانها الممتاز إلا فى أخريات القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، أى عند ما آلت زعامة الفلسفة إلى كانت[٢] وشليجل ، وهجل ، على هذا الترتيب . أما هجل فكان مبدأ التطور عنده مفتاحاً لتاريخ العالم ، إذ رأى عملية نمو الجنس الإنسانى سياسياً إنما هى بأسرها تحقق تدريجى لمعنى الحرية . والحق أن التصور النشوئى للتاريخ أصبح من خصائص المدرسة الابتداعية فى مجموعها ، فقد كان مطابقاً كل المطابقة لرغبتهم أن يردوا على العصور الوسطى مقامها ، وقد استطاعوا أن يدللوا بواسطته على أن من العبث أن يقال مع التعقليين إن الفترة الواقعة بين قسطنطين وكولمبُ مجرد هوة فاصلة بين عصرى استنارة يرجعان إلى أصل واحد ، وأن الواجب أن نلحظ وراء مظاهر الأشياء غرضاً واحداً ثابتاً يعمل على التحرر والظهور بنفسه ببطء فى ذلك العصر وفى كل عصر آخر .

إن مبدأ النشوء الذى أصطفاه الفلاسفة والمؤرخون على هذا النحو ، قد اصطفاه مفكرون آخرون فى ميادين أخرى للبحث والتفكير . فالرجعيون من رجال اللاهوت وجدوا فى النظرية القائلة « بنمو العقيدة المسيحية » سلاحا ماضيا يصدون به حملات الإنجيليين الذين كانوا يذهبون إلى أن الحقيقة الكاملة النهائية قد جاء بها العهد الجديد . واتخذ هربرت سبنسر[٣]

(١) Lessing (١٧٢٦ — ١٧٨١) نقاد ودراى ألمانى ، من أشهر كتبه كتاب فى الفنون الجميلة اسمه « لاوكون » Laokoon .

(٢) Kant (١٧٢٤ — ١٨٠٤) فيلسوف ألمانيا الأكبر . أنشأ مذهباً فلسفياً عميقاً يضاف إليه ، ومن أهم كتبه الفلسفية « نقد العقل المجرد » .

(٣) Herbert Spencer (١٨٢٠ — ١٩٠٣) هو فيلسوف إنجلترا العلمى =

من مبدأ النشوء أساسا لنظام من التفكير شامل يقوم عليه البحث عن تفسير للصروف التى آلت بها جميع الظواهر إلى ما هى عليه الآن . إلا أن عقيدة النشوء من حيث هى الفكرة المادية فى القرن التاسع عشر لم تتقرر إلا بعد أن أظهر ليل[١] فى الجيولوچيا ، ودارون[٢] فى البيولوچيا ، الطرق العملية التى تم بها نمو الدنيا وتكون الأنواع .

لقد صيرت عقيدة النشوء علما كل فرع من فروع المعرفة اليقينية ، وأصبح من المتعين أن تبحث من جديد ظواهر الطبيعة وطبيعة الإنسان والاجتماع والدين ليعلم كيف اكتسبت هذه الظواهر خصائصها الحاضرة . ولما كان يصاحب جميع العمليات التى يمكن تتبع نشوئها « قانون » ثابت بمعنى اطراد تتابع العلل ومعلولاتها ، فقد ظهر أن فى وسع الناس بقدر كاف من المهارة أن يصلوا إلى هذا النوع من « القوانين » فى كل ميدان من ميادين البحث ، وذلك ما أجمل جون استيورت ميل[٣] التعبير عنه بقوله : « إن جميع الظواهر على الإطلاق تحكمها قوانين غير قابلة للتخلف

= الأشهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . صاغ فلسفته على مقتضى اتجاه العلم فى ذلك الزمن ، ويظهر ذلك فى كتبه « أصول علم الحياة » و « أصول علم النفس » و « أصول علم الاجتماع » و « أصول علم الأخلاق » .

(١) Lyell (١٧٩٧ — ١٨٧٥) چيولوچى إنجليزى كبير ، ضمن مبتكراته الجيولوچية ، كتابه القيم « أصول الچيولوچيا » .

(٢) Darwin (١٨٠٩ — ١٨٨٢) هو العالم الطبيعى الإنجليزى الكبير صاحب كتاب « أصول الأنواع » .

(٣) John Stuart Mill (١٨٠٦ — ١٨٧٣) فيلسوف واقتصادى إنجليزى كبير اشتهر ببحوثه فى المنطق والاقتصاد .

ولا تعترضها إرادة ما ، طبيعية كانت أو فوق الطبيعية[1] . وعلى هذا الرأى جعل ميل غرضه الأساسى فى الحياة أن يصل إلى « القوانين » الثابتة التى يقوم عليها نشوء الإنسان أخلاقيا واجتماعيا ، فكان غرضه من كتاب « المنطق » (١٨٤٣) بيان الطريقة المثلى لبحث علوم الإنسان كما أن تحوله بعد ذلك إلى الاقتصاد السياسى (١٨٤٤ و١٨٤٨) يرجع إلى اعتقاده بأن فى العلم بأحوال الإنسان من حيث هو منتج للثروة ومستهلك ومبادل لها «قوانين» من النوع الإيجابى الصحيح لا يتعذر الوصول إليها مثال ذلك « قانون تناقص الغلة » و « قانون السكان » لمالثوس[2] و « قانون الأجور » لريكاردو[3] .

وكان ميل بمحاولته النهوض بعلوم الإنسان إلى مستوى العلوم الطبيعية أو النزول بها إليه ، إنما يقفو أثر أستاذه الفرنسى العظيم أوجست

(١) جاء فى كتاب أوغست كمت والفلسفة الوضعية : الطبعة الثانية ص ٢ « يعترض على عبارة ميل من وجوه : ١ — إن كلة « تحكمها » غير ملائمة ، فالقوانين الطبيعية ليست أوامر بل مجرد تعميمات ٢ — إن قوله « غير قابلة للتخلف » يحسن أن يقال بدلا منها « غير متخلفة » ٣ — ثم إن الإرادات طبيعية كانت أو فوق الطبيعية ، هى من الظواهر التى يطلب إلى العلم توضيحها ، ولما كانت موجودة ومؤثرة فهى ليست « اعتراضات » خارجة عن مجرى الطبيعة » . (المؤلف)

(٢) Malthus (١٧٦٦ — ١٨٣٤) اقتصادى إنجليزى له « رسالة فى السكان » ذهب فيها إلى أن سكان العالم يزيدون بنسبة تزيد على نسبة زيادة مواد المعيشة ، وأن الواجب يقضى بضبط النسل حتى يكون هناك تعادل بين النسبتين ، وقد ألهم ببحوثه العالم الطبيعى دارون والعالم الاقتصادي ريكاردو .

(٣) Ricardo (١٧٧٢ — ١٨٢٥) اقتصادى إنجليزى ضمن آراءه فى الأجور وأعمال المصارف كتابه « أصول الاقتصاد السياسى والضرائب » .

كمت[1] (١٧٩٨ — ١٨٥٧) . لقد شاد كمت صرح الفلسفة الوضعية الشامخ فوق أسس طبيعية باطلاعه الواسع وجهوده المتصلة . وقد أخرج اللاهوت وما وراء الطبيعة من عالم الرياضيات والفلسفة ، وهما عنده خارجان آخرة الأمر من دائرة كل علم آخر حتى علم الاجتماع . ثم نصب نفسه بعد ذلك للوصول إلى « القوانين » التى تفسر غرابة أطوار الإنسان فى حالى التفرد والاجتماع . لكن كمت لم يكن بالمؤرخ المستقرئ للحوادث ، بل فيلسوفاً يقتاس الأمور بأشباهها ، فلم يحاول قط بصفة جدية أن يعرض عرضا وضعيا ذلك السجل المعقد ، سجل نشوء الإنسان هنا فوق سطح هذه البسيطة . إلا أن ما لم يقدم عليه هو نفسه أقدم عليه تلميذ له إنجليزى اسمه توماس هنرى بكل[2] (١٨٢١ — ١٨٦٢) ظهر كتاب « تاريخ الحضارة فى إنجلترا » لبكل فى غضون سنى (١٨٥٧ — ١٨٦١) وهو يعد مقدمة لمشروع واسع النطاق وثمرة جهود عشرين سنة أنفقت فى اطلاع واسع وتفكير ملموم مركز . وقد قصد بكل فى هذه المقدمة إلى أن ينشئ على مقتضى أصول فن الإحصاء علماً وضعيا للاجتماع الإنسانى . وكان ذلك منه دعوى عريضة أحدثت بما تضمنته من تصور طريف ، وعرض علمى وتهجم على الآراء الدينية والفلسفية السائدة ، ضجة قوية وجدلا طويلا حارا . وكان الجدل أشد ما يكون حول مسألة الجبر والاختيار ، وهى نفس المسألة التى يقول ملتن إن الملائكة الذين أخرجوا من الجنة قبل

(١) Auguste Comte هو الفيلسوف الفرنسى المشهور وضمن آراءه المذكورة فى المتن كتابه « الفلسفة الوضعية » .

(٢) Thomas Henry Buckle .

خلق الإنسان خاضوا فيها بمجرد أن أفاقوا من غشيتهم التى أصابتهم عند ما رأوا أنفسهم فى سواء الجحيم. فحمل تشارلز كنجزلى(١) ، وكان إذ ذاك حديث عهد بكرسى الأستاذية الملكى للتاريخ بجامعة كمبردج ، على رأى بكل فى الجبر ، وذلك فى محاضرته الافتتاحية التى تكلم فيها على « مدى تطبيق العلم اليقينى على التاريخ » (١٨٦٠) . لكن حملة كنجزلى لم تو تأثيرًا ما ، وكان أقدر منها وأقوى أثرًا محاضرة أخرى ألقاها جيمس أنطو فرود(٢) فى المعهد الملكى عام ١٨٦٤ بعنوان « علم التاريخ » ، وقد نشرت بعد فى المجلد الأول من كتابه « دراسات قصيرة » . على أن أشد الردود هدمًا لنظرية بكل — لكونه أشدها بعدا من إنكار اللاهوت واطراحه — رد درويسن المعنون بـ « النهوض بالتاريخ إلى مستوى العلم اليقينى » (١٨٦٢) وكتابه « مناهج التاريخ » (١٨٥٨) . يقول درويسن ما الفائدة من كل ما ساقه بكل من استقراء عريض الدعوى ؟ أية قوانين وصل إليها وصاغها ؟ ثم يورد بعض قوانين بكل ويعقب عليه بقوله « إن قوانين من هذا القبيل يمكن الوصول إلى عشرات منها كل يو بنفس التعميم الذى جرى عليه بكل ، وليس منها ما يزيد عمقًا وفائدة على قولهم المأثور (إن حضارة الأمم تقاس بكمية الصابون الذى تستنفده) .

---

(١) Charles Kingsley (١٨١٩ — ١٨٧٥) قسيس وروائى وشا إنجليزى ، له قصة « هيباتيا » وكتاب « الأبطال » .

(٢) James Anthony Froude (١٨١٨ — ١٨٩٤) مؤرخ إنجليزى كان أستاذًا للتاريخ الحديث بأكسفورد ، عرف بسلاسة الأسلوب وبلاغة الوص وبتناول التاريخ من الناحية الشخصية .

ثم تنجلى غمرة هذا الجدل كله عن حقيقتين هامتين تتضمنان ما أشرنا إليه فى الفصل الأول من بحثنا هذا ، وهو أن التاريخ يختلف عن العلوم الطبيعية من حيث طرائقه وتعميماته : (١) فهو من حيث طرائقه علم نقد لا علم ملاحظة وتجربة (٢) أما من حيث تعميماته ، فإنه لما كانت هذه التعميمات متصلة بعالم العقل لا عالم المادة ، وكانت الغلبة فى عالم العقل الذى هو عالم الشعور والحرية الظاهرية للباعث دون القوة ، فإن هذه التعميمات لا يمكن أبداً أن يكون لها من الدقة والعموم ما يدل عليه لفظ « قانون » .

الفصل السابع

فوائد التاريخ

التاريخ وبرامج التربية والتعليم — فائدة التاريخ للفرد من حيث هو فرد — التاريخ والحياة الدينية والحياة العامة — ضرر اتخاذ التاريخ وسيلة لنشر الدعاية السياسية — فوائد التاريخ فى إعداد الفرد للحياة الدينية والحياة السياسية

إن القول باستحالة النهوض بالتاريخ إلى مرتبة العلم الطبيعى أو النزول به إليها قد أثار مسائل خطيرة تتصل بوظائفه وخاصة مكانته من التربية والتعليم . فأما بكل وأشياعه فقد رفعوا الصوت عالياً معلنين أنه إذا لم يعتبر التاريخ علماً وضعيا فلا قيمة له على الإطلاق فى بناء الأخلاق وهداية الناس فى هذه الحياة . ولاح على الذين يطمحون إلى المثل العليا أنهم يميلون هذا الميل ويرون هذا الرأى . قال الرئيس كيرد[1] من خطبة له ألقاها فى جامعة جلاسجو عام ١٨٨٤ وكان موضوعها «دراسة التاريخ» « إن ضرورة جعل التاريخ ضمن المنهج الجامعى يتوقف الفصل فيها على جواب هذا السؤال : هل يحتمل التاريخ التناول العلمى أو لا يحتمله ؟ إن المعرفة التى لم ترتفع بعد عن مستوى الوقائع والجزئيات ، ولم تصبح بعد فى قبضة المبادئ العامة ،

(١) Caird (١٨٣٥ — ١٩٠٨) فيلسوف ولاهوتى بريطانى كان أستاذ الفلسفة الأخلاقية بجامعة جلاسجو . وله بحث شتى فى فلسفة كانت الألمانى .

أو لم تصبح بعد يوضحها ويطامن بين أجزائها قانون من القوانين ، لا تعتبر فى رأيى أداة صالحة للتعليم العالى» . ثم يأخذ الرئيس كيرد فى الإجابة عن هذا السؤال : إلى أى حد وبأى معنى يمكن اعتبار التاريخ علماً ؟ فيؤديه البحث إلى هذه النتيجة « إن التاريخ ، وإن كان لا يمكن اعتباره علماً يقينيا على نحو ما تعتبر الآليات والبصريات وحتى علما النبات ووظائف الأعضاء ، إلا أنه من حيث طرائقه ونتائجه آخذ على أقل تقدير بشبه قوى جداً من العلوم المذكورة يجيز لنا أن ننحله اسم العلم » ، أما وقد اعتبر الرئيس كيرد التاريخ علماً بوجه ما فهو يرى أنه يمكن الانتفاع به فى توسيع المدارك وتعويد الناس الإنصاف فى الحكم ووضع الأشخاص والحوادث فى وضعها الصحيح على مسرح الشؤون العامة . ثم يقول : « إن التاريخ حرى بأن يكسبنا تصوراً صحيحاً لما هو عارض موقوت بالقياس إلى ما هو أبدى باق فى حياة الإنسان » .

وقد لقى رأى الرئيس كيرد فى ماهية التاريخ من حيث هو علم قبولا عاما لما ينطوى عليه من سداد واحتراس . أما كلامه على فوائد التاريخ فلم يلق مثل تلك الحظوة العامة . وفى أيامنا هذه لا يزال خلاف كثير فى الرأى دائراً حول العلاقة بين التاريخ والتربية وصلته بالشؤون العملية لبنى الإنسان . فإنه إذا كانت الحوادث لا تتكرر ، وكان من المستحيل الوصول إلى تعميمات تنتظم الظواهر التاريخية ، فليت شعرى أية فائدة يمكن أن تجنى من دراسة التاريخ على الإطلاق ؟ ونجيب عن ذلك فيما يلى :

أولا — من حيث مكانة التاريخ من تربية الفرد . إن القيمة العملية

لدراسة التاريخ خارجة عن موضوع البحث ، فكثير من المواد التي لا تطبق تطبيقاً ظاهراً على شؤون الحياة قد تكون لها قيمة تربيوية من حيث كونها ترهف الأذهان وتنمى المدارك ، ومن علماء البيداجوجيا من يذهب إلى أن المواد الصالحة للدراسة المدرسية والجامعية إنما هي تلك التي لا تشوب الاعتبارات النفعية صفو الاشتغال بها . يقول سير ت . ج . روبر[١] : « إن خير أنواع التربية ما نمى أعظم مقدار ممكن من قوى العقل ومداركه » ، ومع ذلك فأغلب علماء التربية مجمعون على أن أغراضاً أخر غير مجرد تنمية القوى العقلية يجب أن تكون مناط عناية المربين ومحل اعتبارهم . إن أولئك الذين حشوا إهابهم عقل وعقل فقط ، هم خطر على المجتمع يجب أن يحسب له كل حساب . من هؤلاء من كتب عليهم أن يكونوا قطاع طرق ، يسطون على الناس من سياراتهم ، وماليين وكبراء تجار ، ونقباء نقابات ، ورجال سياسة . ينبغى أن تنمى التربية فى الإنسان قوة أخلاقية قادرة على كبح جماح العقل إذا ما طغى ولج فى طغيانه . ينبغى أن تزود التربية الإنسان بقدر كاف من المهارة الفنيـة يمكنه من كسب قوته . ينبغى أن تعلم التربية الفرد كيف يقوم بواجبه من حيث هو ناخب وإدارى نحو الجماعة التى ينتمى إليها .

إلى أى حد تمكن الاستعانة بالتاريخ فى تحقيق أى غرض من هذه الأغراض التربيوية العامة ؟ أما السير راى لنكستر[٢] فيعتبر التاريخ

---

(١) T. G. Rooper (١٨٤٧ — ١٩٠٣) مرب إنجليزى ، له بحوث شتى فى التربية وأثر حسن فى نظام التربية فى إنجلترا .

(٢) Sir Ray Lankester (١٨٤٧ — ١٩٢٩) عالم بيولوجى وأستاذ =

من هذه الناحية عديم الجدوى بالمرة ، ولقد قال فى محاضراته التى موضوعها « مملكة الإنسان » . (١٩٠٧) « نحب أن نرى نظام التربية القائم على دراسة التاريخ والآداب القديمة قد عدل عنـه بالمرة إلى نظام آخر يقوم على العلوم الطبيعية » إلا أنه يسلم بأن « قراءة التـاريخ لذيذة » وأن التاريخ له قيمته « كسلاة » يتسلى بها . ومن ناحية أخرى فإنا نجد كتاباً أمثال السيدين لنجلوا وسنيوبوس فى فرنسا ، وهربرنهايم فى ألمانيـا ، والأستاذ ج . و . ألان[١] فى إنجلترا ، يرون فى التاريخ أداة لرياضة العقل تجل عن التقويم والتقدير . فيقول الأسـتاذ ألان « إن دراسة التاريخ تنشط الفكر وتفتقه وتساعده بطرق شتى » ، وهو يستهجن مع ذلك كل محاولة ترمى إلى استخدام التاريخ فى تحقيق أغراض لها صلة بالعواطف أو الأخلاق أو السياسة . ثم إننا نجد رجالا آخرين ممتازين من أظهرهم لورد بولنجبروك ، والأسقف استبز ، ومستر فرود ، يرون أن الفائدة الأخلاقية هى بالدقة ما يجعل للتاريخ قيمة من حيث التربية . يقول بولنجبروك « لقد بان لى أن دراسة التاريخ دون سواها أصلح الدراسات لتعويد الإنسان الفضائل الخاصة والعامة » . وقليل من الناس من يعارض اليوم فى وجوب استخدام التاريخ أداة لإلقاء دروس فى الأخلاق خارجة عن نطاق البحث التاريخى . وأقل منهم من يفكر أن دراسته توسع أفق العقل وترفع مستوى الأخلاق بوقفها الطالب على كل ما هو عظيم سام ،

= بريطانى . وضع كتباً شتى فى علم البيولوجيا . قصد فى بعضها إلى تقريب العلم من ذهن القارىء العادى .

(١) J. W. Allen :

وتنبه الخيال العاطف ، وتبرز العلاقة بين أخلاقية العمل ومصير العامل ، وتبعث فى نفس القارئ كما يلاحظ لمبرخت « معانى الأخذة والروعة تلقاء نواحى النشاط الإنسانى التى لا تحصى وخطره الذى لا يتناهى » . بل إن التاريخ عنـد ر . د . إمرسن أعلى من ذلك وأسمى ، فهو يرى أن ثم تماثلا تاماً بين حياة الفرد وتاريخ الإنسانية ، فالإنسان هو العالم الأصغر والإنسانية هى العالم الأكبر ، ومن ثم يستطيع الفرد من طريق دراسة التاريخ أن ينفذ إلى أسرار شخصيته المحجوبة عنه . إن الكل يتضمن الجزء ، والجزء يدل على الكل ، والتاريخ كله مضمن فى العقل الفرد ، وخلق كل فرد ومصيره واضحان فى التاريخ . لا شك أن إمرسن يقترب بهذا القول من حدود السخف والتخليط ، ومع ذلك فمن المحقق أن العلم بالتاريخ من حيث هو مجمع الحوادث وملاكها لا يستغنى عنـه من يريد تـكوين تصور كامل متزن للعالم بوجه عام . إن التاريخ هو وحده القادر على أن يضع ظواهر الحاضر فى وضعها الصحيح ، والتـاريخ هو وحده القادر على أن يجلو لعين الباحث ميـدان الحياة كاملا غير منقوص ، والتاريخ هو وحده القادر على أن يمكن الظاعن الذى يقضى « يوم راحته » تحت خيمة هذا الوجود الخفية من أن يطلع على غرائب ما يحيط به من مظاهر الأبدية .

ثانياً — من حيث مكانة التاريخ من التربية المدنية والحياة العامة : هل للعلم بالتاريخ قيمة عملية حقاً ؟ ما الصلة بينه وبين السياسيات ؟ أما أن ولاة الأمور فى معظم دول العالم يرون تدريس التاريخ أمراً هاماً

فذلك ما تدل عليه عنايتهم بمراقبة كتب التاريخ المدرسية التى تدرس فى المدارس ، وأنهم يحاولون أن يوقعوا لمدرسى التاريخ النغمة التى يجرون عليها فى دروسهم . لقد قدم تقرير إلى مجلس مقاطعة لندن قبيل الحرب الـكبرى جاء فيه : « يطلب إلى المدرس فى فرنسا أن يرغّب فى الجمهورية القومية وينفّر من الملـكية والدولية ؛ وفى بروسيا يطلب إليه فى صراحة أتم أن يشيد بمزايا الملـكية ممثلة فى آل هُوهنزلرن القائمين بالحـكم ، وأن ينبه على خطر الاشتراكية الحديثة ؛ أما فى كويتزلند ، فيطلب إليه أن يؤسس دراسة التاريخ كلها على عقيدة تقديس الملـكية العامة » . ربما كانت تجارب العشرين سنة الأخيرة قد عملت بعض الشىء على زعزعة اعتقاد السـاسة فى قيمة اتخاذ المدارس أمكنة لنشر الدعاية ؛ ومع ذلك ، ومع أن الحرب والثورة قد وضعا أوزارهما وتجلت عبرهما ، فما زلنا نرى ألمانيا ماضية فى التنغيم لمدرسيها وإن كانت النغمة الجديدة الجمهورية التعاهدية ، وما زلنا نرى حكومة السوفييت فى روسيا تخضع كل برامج مدارسها وجامعاتها لفكرة تلقين الطلاب مبـادىء البلشفية ، وما زلنا نرى إيطاليا تجعل مبادىء الفاشستية أساس دراسة التاريخ فى معاهدها العلمية . قد يصل رجال السياسة مع الزمن إلى أنه لا شىء أحرى بتفويت الغرض المقصود منه من بث الدعاية فى المدارس ، وإلى أن أكره الأشـياء إلى نفوس الطلاب هى تلك التى يجرعهم إياها المعلمون تجريعاً ، وإلى أن العقائد التى يصبح التلاميذ أميل إلى الشك فيها بتقدمهم فى السن هى بالدقة تلك التى فرضتها عليهم فى طفولتهم سلطة

قوية قاهرة . ذلك درس قد ينفع تذكره عصبة من الساسة موفرة فى جميع البلدان تحرص على الاستعانة برجال التربية فى محاولتها استخدام مدرسى التاريخ فى المدارس العامة دعاة إلى السلام ، أو الشعوبية أو غير ذلك من القضايا التى ترى فيها خيراً .

فإذا صح أن التاريخ ينبغى ألا يستخدم ، أو لا يمكن أن يستخدم — وهو المحتمل — ، استخداماً فعالاً فى نشر الدعاية ، فأية فائدة يمكن أن نجنيها منه التربية المدنية والسياسية ؟ لقد أجاب الأستاذ سيلى عن هذا السؤال جواباً شافيا وافياً فقال من محاضرة له فى « تدريس العلوم السياسية » (١٨٦٩) « إن التاريخ مدرسة السياسة ، وبدون مقدار يسير منه على أقل تقدير لا يمكن الإنسان أن يعنى عناية معقولة بالشؤون السياسية ، وبدون حظ موفور منه لا يمكنه أن يصدر حكما معقولاً فى أى شأن من شؤونها ، إن التاريخ دراسة هامة لكل مدنى ، بل هو الدراسة الهامة الوحيدة الخليقة برجال الحكم والتشريع » ؛ فإذا سألنا أنفسنا بدقة أتم ، على أى نحو تتوفر للتاريخ هذه القيمة المدنية والسياسية التى يتمسك بها الأستاذ سيلى كل هذا التمسك ؟ فإنى أرى جواب ذلك يكون بتناول التاريخ من ثلاث نواح :

(أولا) من حيث هو مدرسة الطريقة السياسية

(ثانياً) من حيث هو مستودع التقاليد السياسية

(ثالثاً) من حيث هو أساس الرق السياسى

(١) التاريخ من حيث هو مدرسة لتعليم طريقة البحث السياسى :

من الصحيح نسبياً قولهم إن التاريخ عبارة عن سياسة الماضى ، وإن السياسة تاريخ الحاضر ، فموضوع التاريخ والسياسة واحد ، وكلاهما يقوم على وقائع غير معينة ، وكلاهما يحاول أن يصل إلى البواعث المحركة المستترة وراء ما للوقائع من حجب مشكوك فيها . هما علمان اجتماعيان نفسيان ليس موضوعهما ظواهر محدودة مطردة لطبيعة فاقدة الإحساس ، ولكنه عبارة عن حركات لا تحصى لشعوب الأرض ، وخلجات لا تستقصى لعقول الجماعات . وكلا السياسى والمؤرخ لا مندوحة له عن الاستنباط من مواد غير مستيقنة ، وكلاهما غير قادر بحال على أن يتجاوز من مراتب الحقيقة مرتبة الاحتمال . إن من أوائل الدروس التى يتعلمها المؤرخ لأول شروعه فى بحث تيار معين من الحوادث أن يعلم أن من الصعاب الكأداء التى لا سبيل إلى التغلب عليها أن يصل إلى الحقيقة المطلقة الثابتة ، وأمثلة هذه الصعاب كثيرة نكتفى بالتدليل عليها بالمثل الآنى المستمد من أحدث الماجريات . عندما كان مستر لويد جورج رئيساً للوزارة الإنجليزية زار مجلس العموم رسولا حكومة السوفييت مسيو كراسين (١) ومسيو كامنف (٢) ليسمعا خطبته عن بولونيا ، وإلى القارىء أقوال شهود عيان هم مندو بو جرائد لندن المسائية الأربع التى

---

(١) M. Krassin .

(٢) M. Kameneff .

صدرت فى نفس اليوم الذى ألقيت فيه الخطبة المذكورة .

ايفننج استندارد	استار	ايفننج نيوز	بال مال غازيت
كان حديثهما ينم عن مجرد معرفة محدودة باللغة الإنجليزية، ولكن كان يظهر عليهما أنهما فاهمان كل كلمة قالها مستر لويد چورچ ، وهما لم يتابعاه بتشوف فحسب ، بل كانا أحيانا يعلقان على قوله بتعليقات فيها حياة .	استطاع كراسين أن يتتبع كل كلمة قالها مستر لويد چورج . أما زميله فلأنه لا يتكلم الإنجليزية ولا يفهمها ، كان كراسين كل بضع دقائق يميل عليه ويهمس فى أذنه بترجمة ما يقال .	أنهما لم يتبادلا ملحوظة واحدة أثناء كل خطابة الرئيس .	كان يبدو على رسولى السوفييت وخصوصاً مستر كراسين شىء من القلق ، ولاح عليهما أنهما أكثر اهتماما بما يريان منهما بما يسمعان ، ولكن بلغنى أن ذلك راجع إلى تعذر متابعتهما كلام رئيس الوزارة .

فيرى القارىء أن بين هذه الروايات المباشرة التى تتناول الحادث الذى نحن بصدده تضارباً فى الأداء لا يمكن معه التوفيق بينها . (فأولا) هل استطاع مستر كراسين أو لم يستطع أن يتابع فى سهولة خطبة مستر لويد چورج ؟ (ثانياً) هل استطاع مستر كامنف أو لم يستطع فهم الخطبة على الإطلاق ؟ (ثالثاً) هل عنى الرسولان أحدهما أو كلاهما بالخطابة أو لم يعنيا ؟ و (أخيراً) هل كلم أحدهما الآخر أو لم يكلمه أثناء الخطابة ؟ فمن يستطيع أن يعرف جلية الخبر إزاء هؤلاء الأربعة الذين عاينوا الأمر وشهدوه ؟ ومع ذلك فهذا مجرد مثل متطرف للحال بإزاء

كل حادث تاريخى ، فليس فى الطاقة أن نعرف كيف وقع بالدقة حادث معين . وكذلك الشأن فى السياسة ، فليس فيها شىء ثابت مستيقن ، وذهن الكاتب السياسى أبداً مجال لاحتمالات متضاربة ، وهو أبداً مطلوب إليه أن يوازن ويقايس بين أمور متعارضة ، والفارق الهام الوحيد بين التاريخ والسياسة هو أن التاريخ بارد والسياسة حارة ، وهو لعمرى فارق حيوى ، فإذا كان فى الإمكان تناول مسائل سياسة الماضى — كحالة أثينا على عهد بركليز مثلا ، وحال رومية على عهد أغسطس — ببرود واستقلال فى الرأى ، فإن دراسة التاريخ تكون قيمة جداً من حيث هى مدرسة لتعليم طريقة البحث . فهى تعلمنا الحذر ، واستقلال الرأى ، وسجاحة الطبع . إنها تبعث فينا شعوراً بتعقد الظواهر الاجتماعية النفسية وتقلبها ، إنها تهيىء لنا أسباب اكتساب ملكة صعبة المنال هى ملكة الاستدلال بالأفعال الظاهرة على البواعث والأفكار الباطنة .

(٢) التاريخ من حيث هو مستودع السوابق السياسية :

غير أن التاريخ أكبر من أن يكون مجرد مدرسة تعلم فيها الطريقة السياسية . إنه إلى جانب ذلك مستودع السوابق السياسية . إن المشاكل التى تواجه الجيل الحاضر قد طرحت على بساط البحث بشكل ما مراراً كثيرة فيما مضى . نعم إن التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا يمكن أن يجعل بحيث يعيد نفسه ، إلا أنه ما من حادث يحدث إلا وهو يزيد فى محيط كل حادث يترتب عليه بمقدار كونه علة فى حدوثه ، وبذلك يكون

مجرد حدوث حادث ما مرة سدا قويا مانعاً من حدوثه أبد الدهر مرة أخرى . وهذا هو نفس الأمر بالنسبة إلى حياة الفرد ، فما أحد بواجد نفسه مرتين فى موقف واحد بالدقة ، وليس فى وسع إنسان أن يلاحظ أن علاقاته بأقرانه تجرى من حيث تتابع العلل والمعلولات على وتيرة واحدة . ولكن على الرغم من ذلك كله فكل إنسان يجد عندما يبلغ سن النضج والاكتمال أنه تهديه وتحكمه تجاربه التى تعيها ذاكرته ، ومبادىء السلوك التى يستمدها حكمه من التجارب المذكورة . وما يقال عن الفرد يقال عن الجنس الإنسانى ، مع ملاحظة هذا الفارق الهام : وهو أن الجنس الإنسانى فاقد لما يتصف به الفرد من الشخصية والشعور الذاتى المستمر . ليس للجنس ذاكرة طبيعية ، ولكيلا يفقد الثروة الضخمة المتجمعة من تجارب الماضى ، وجب أن تنشأ له ذاكرة ، وذاكرة الجنس الإنسانى هى التاريخ ، فبالتاريخ يتوافر للجنس الإنسانى الشعور الذاتى . يقول درويسن : « إن التاريخ هو مبدأ (اعرف نفسك) مضافاً إلى الجنس الإنسانى ، هو ضميره » . وبهذا الشعور الذاتى يمكن الجنس الإنسانى أن يصبح إلى حد ما مسيطراً على مستقبله ، وبدونه تستحيل عليه تلك السيطرة ، وبواسطته يستطيع التحكم فى مصايره ، وأن يمضى قدماً فى طريق الرقى والفلاح .

ليس ممكناً ولا ضرورياً أن نسوق فى هذا المقام أمثلة يرى منها القارىء الطريقة التى بها يتلقى جيل معين تجارب الأجيال السابقة عليه . فالتاريخ كله من بعض الوجوه مجرد عرض لهذه الطريقة ، ومع ذلك

فلا بأس بإيراد الأمثلة الآتية : إن الملكية الانتخابية لها من النواحى النظرية ما يؤيدها ، ومع ذلك فقد عدل عنها فى مجال الحياة السياسية العملية بإزاء ما دلت عليه التجارب فى رومية الإمبراطورية ، وألمانيا فى العصور الوسطى ، وبولندا الحديثة . ثم إن « النظام التجارى » القديم للسياسة الاستعمارية مما يمكن أن يدافع عنه بقوة من حيث المبادىء العامة ، ومع ذلك فثورة المستعمرات الأمريكية جعلت الرجوع إليها فى الدولة البريطانية أمراً لا يتصور أبداً . وقد نجد فى أحوال أخرى أن السابقة السياسية ليست بقاطعة الدلالة كما هى فى الأمثلة المذكورة ، ولكنها محل اعتبار على كل حال . فمثلاً لا يمكن أن تعتبر مناقشة مزايا وعيوب الحكومة الموحدة المجلس النيابى كافية إذا كنا نتجاهل ما حدث إبان الجمهورية الإنجليزية والثورة الفرنسية . كذلك لا يعتبر أى دفاع عن « حق العمل » مقنعاً من الناحية النظرية إلا أن يخفف من فظاعة الآثار التى تترتب عليه فيقال إن ما حدث منها فى باريس عام ١٨٤٨ كان راجعاً إلى ظروف عارضة . والحق أنه لا شىء أتفه أو أخطر من تناول السياسة على أنها علم نظرى مستقل عن تجارب التاريخ وعبره ، ولله در ديفيد هيوم حيث يقول : « إذا تأملنا قصر حياة الإنسان ، ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع فى زماننا ، فلا شك أننا نشعر بأننا كنا نبقى أطفالا فى إدراكنا لو لم يقيض لنا هذا الاختراع الذى يرجع بخبرتنا إلى جميع العصور الماضية ، وإلى أقدم الأمم الخالية ، ويجعلها تمدنا بأسباب التقدم فى الحكمة كما لو كانت تحت أنظارنا وأسماعنا . إن

الرجل المطلع على التاريخ ليمكن أن يقال عنه من بعض الوجوه إنه يعيش منذ بداية العالم ، وإنه دائم الاستمداد من كل مملكة يمر بها مدداً يضيفه إلى المدخر المخزون من معارفه » .

التاريخ من حيث هو أساس للتقدم السياسي :

إن التاريخ يمد السياسي بأكثر من سوابق تمت تجربتها ، إنه يعطيه الأصول الواقعية لمشاكل الوقت الحاضر . وإذا كان من الخطر أن نتناول المسائل السياسية من الناحية النظرية كما لو كانت لا سوابق لها على الإطلاق ، فإنه لا شيء بعد ذلك أقتل من أن يظن أن تلك السوابق مما يمكن تجاهله فى كل تسوية يراد بقاؤها ودوامها . إن فشل البيوريتان الإنجليز فى تحقيق نظامهم فى القرن السابع عشر ، وفشل الثوار الفرنسيين فى استبقاء نظمهم فى القرن الثامن عشر ، كل ذلك يرجع إلى حد بعيد إلى إهمال الفريقين مبدأ الاستمرار التاريخى ، ففى كلتا الحالين دفعت المصلحين وقدة الحماسة وقوة البدع المحدثة إلى الانسراح من قيود الماضى جملة ، فجهلوا أن الدولة ذات طبيعة عضوية ، وأقبلوا يجرون لها عمليات جراحية استئصالية كادت تودى بحياتها ، فلا عجب إذا كان العليل قد نهض فى كلتا الحالين فزعا مرعوبا وطرد أولئك المصلحين طرداً .

كل المشاكل الكبيرة القائمة فى وقتنا الحاضر ، سياسية كانت أو اجتماعية ، لها تاريخ بعيد . ففى أوربا مثلا نجد أن مسألة قانون الفقراء الإنجليزى كما تناولها تقرير عام ١٩٠٩ هى فى الواقع عبارة عن هذه المسألة

هل ترجع إنجلترا فى المسألة المذكورة إلى مبادئ عام ١٨٣٤ أو عام ١٧٩٥ أو عام ١٦٠١ ؟ ثم إن مسألة حق الانتخاب ترجع بنا من قوانين الإصلاح إلى أيام إدوارد الأول وسيمون ده مونتفرت ؛ ثم إن المسألة الدستورية الإنجليزية هى أيضاً ترجع أصولها إلى المجامع الشعبية التى كانت للشعوب الجرمانية البدائية . والمسألة الشرقية مما يجرى هذا المجرى ، فهى ليست إلا وجهاً من وجوه الخصومة المطردة بين آسيا وأوربا ، تلك الخصومة العريقة فى القدم حتى عندما التقى الإغريق بالفرس عند مرتون ؛ وتقرير سيمون فى عام ١٩٣٠ قد دل على ضرورة دراسة التاريخ الهندى دراسة دقيقة وافية لكل من يحاول معالجة المسألة الحديثة ، مسألة استقلال الهند الذاتى . والحق أن التفكير فى أى مسألة أوربية ماثلة فى مقدمة الشؤون السيارة العملية لتصدق كلمات السير جون سيلى التى سبق اقتباسها والتى تقول إن التاريخ «دراسة هامة لكل مدنى ، وهى الدراسة الهامة الوحيدة لرجال الحكم والتشريع » .

وقد يؤيد هذه الحقيقة أن نلقى نظرة على المسائل القائمة فى أمريكا اليوم ، فالمناقشة الأساسية بين الحكومة التعاهدية وحكومات الولايات لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بالرجوع إلى عهد المستعمرات القديمة أيام كانت السلطة المركزية مستقرة فى بريطانيا العظمى ، وكان كل من المستعمرات الثلاث عشرة مستقلا عن سائر المستعمرات استقلالاً تاما . كذلك المسألة الاجتماعية السياسية الخاصة بمكانة الزنوج ، فهى ترجع مع الزمن إلى أيام « التجارية » إذ عادت النخاسة الرابحة على أمريكا

بعمل رخيص لم تنزعج من طريقة الحصول عليه ضمائر البيوريتان . هذا ومن المسائل الأمريكية ما يبدو لأول وهلة حديثاً ، ولكنه فى واقع الأمر قديم ؛ خذ لذلك مثلا مسألة منع الخمور ، فهى ليست إلا مظهرا للتعارض المستمر بين الحرية والسلطان ، بين الحرية الجانحة إلى ارتكاب الخطأ ، وبين السلطان المعتزم حمل الناس على الصواب ، وهو تعارض لعمر الحق ظهر أصلا وتطلب حلا فى نفس جنات عدن .

الفصل الثامن

اتساع نطاق التاريخ

وتزايد محتوياته فى العهد الحديث

التاريخ من حيث هو فرع من علم الاجتماع — العلوم الاجتماعية التى للتاريخ صلة وثيقة بها : الاقتصاد — الجغرافية — علم الإنسان — علم الآثار — خلاصة

استعملنا فى الفصل السابق على سبيل التجوز لفظ « السياسيات » فى مقابل لفظ « التاريخ » ، وهى مقابلة تطابق تلك التى بين لفظى « الحاضر » و « الماضى » ؛ غير أنه يستحسن منعاً للبس أن ننبه على أنا لم نرد من لفظ « السياسيات » معناه الضيق المحدود المقصور على الدولة وحدها ، وإنما أردنا المصالح والمهام التى لها اتصال بكل شكل عام من أشكال النظام البشرى . وهذا التنبيه ضرورى ، لأن بعض قدماء المؤرخين قد أخذوا أنفسهم كما سبق القول أخذاً عنيفاً بالتوفر على دراسة شؤون الحكومات من حروب ، ودبلوماسية ، وتشريع ، وإدارة رسمية ، وإجراءات قضائية . وربما كان تيوسيديد هو الذى سن هذه السنة السيئة بحصره كل اهتمامه فى الشؤون السياسية الهيلينية ، وصرفه نظره بالمرة عن أفانين النشاط الثقافى الخصب والأزمة الاقتصادية الحادة التى امتاز بها تاريخ أثينا وإسبرطة فى أيامه . على أنه من المؤكد أننا نجد فى القرن

التاسع عشر ليوبولدفون رنكى العظيم، بما له من نفوذ علمى وبكونه قدوة يقتدى بها ، قد مال بكتابة التاريخ إلى الناحية السياسية الضيقة ، كما نجد فى إنجلترا فى العصر المذكور فريمان وسيلى مؤرخين سياسيين بأضيق معانى الكلمة.

إلا أن الحواجز التى كانت تحد من نطاق البحث التاريخى أخذت بتصرم القرن التاسع عشر تتداعى شيئاً فشيئاً ، حتى لقد أصبح من القضايا المسلم بها فى الوقت الحاضر أن لا شىء «يتعالى» على نظر التاريخ أو تضيق عنه رحابه ، وأن كل ما يقع من الإنسان أو يقع عليه فى جميع مناحى الحياة عبارة عن موضوعات داخلة فى بحث المؤرخ واختصاصه . بل لقد أصبح من الثابت المحقق أنه إذا لم تكن للمؤرخين فعلا هذه النظرة الواسعة الشاملة فإنهم لا محالة يعرضون علينا صوراً ممسوخة مشوهة لكل عصر يحاولون تصويره . وجملة القول إن التاريخ لم يعد دراسة معزولة عما سواها ، ولكنه أصبح إحدى دراسات يجمع بينها نسب واحد ويتألف من مجموعها علم عام هو علم الاجتماع — وهو علم افتتحه كنت فى فرنسا بما أوتى من عبقرية قادرة على التجزئة والتحليل ، كما افتتحه اسبنسر فى إنجلترا بما أوتى من قدرة على الجمع والتركيب . هو علم نحت له واضعوه اسم « سوسيولوچيا » إظهاراً منهم لاحتقارهم ما درج عليه القدماء . ولعله لم يفق أحد من مدرسى التاريخ فى القرن التاسع عشر كارل لمبرخت فى الترويج لتصور التاريخ على أنه فرع من علم الاجتماع ، وفى تقوية الحلقات التى تصل بين التاريخ وبين سائر فروع ذلك العلم . وقد انبعث من

« قاعة بحثه » الشهيرة مؤرخون اجتماعيون حميون للمذهب الجديد فملأوا أرجاء العالم المتمدن . إلا أنه مما يؤسف له أنهم حملوا معهم فوق تصور لمبرخت الواسع وطرائقه البديعة بعض هناته ، ولا سيما نظريته الخاطئة المتكلفة المتعلقة بـ « المرحلة الثقافية »(١) .

ليس بين الدراسات الاجتماعية التى غدا التاريخ وثيق الصلة بها ما هو أشد لزوماً للمؤرخ من علم الاقتصاد . نعم إن جميع المفكرين المسئولين قد عدلوا عن العقيدة المسرفة التى صاغها مركس وإنجلز(٢) والتى تفسر التاريخ تفسيراً اقتصادياً محضاً ، إلا أن المؤرخين معترفون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً بارزاً فى جميع عصور النشوء الاجتماعى للعالم ، وبخاصة فى العصور القديمة ، أيام كان الإنسان مضطراً إلى أن يكافح من أجل وجوده كفاحا متصلا أعداء طبيعيين مساوين له فى القوة وشدة المراس . ثم إن جميع الساسة مدركون أن الشؤون الاقتصادية قد عادت فأصبحت مرة أخرى فى مقدمة الصوالح الإنسانية ، ولذلك كان التاريخ الاقتصادى فى الآونة الحاضرة دون غيره من فروع التاريخ محل اهتمام الجمهور وعنايته .

وللتاريخ الجديد حليف ثان هو الجغرافية . ليس من بين العلوم علم

(١) "Culture-epoch" theorie ذهب لمبرخت إلى أن تاريخ ألمانيا وتاريخ كل أمة أخرى عبارة عن تعاقب مراحل ثقافية خاضعة لمؤثرات اجتماعية نفسانية . وقد قوبلت نظريته هذه بالنقد العنيف من مؤرخى الجيل الأوربى الحديث لما تنطوى عليه من تعسف فى الحكم وإهمال لأسباب جوهرية أخرى .

(٢) Engels (١٨٢٠ — ١٨٩٥) اشتراكى ألمانى ، كان صديقاً لكارل مركس وشريكا له فى تقرير المذهب الاشتراكى المنسوب إليهما .

كالجغرافية أصابه التحول والتطور التام . لقد احتواها علم الاجتماع هى الأخرى وبذلك اصطبغت بالصبغة الإنسانية ؛ فلم تعد علما أرضياً متصلاً بالجيولوجيا ، ولكن علما من علوم الإنسان يبحث فى الإنسان من حيث علاقته بالمكان ، ويتصل أصلا بالتاريخ الذى يبحث فى الإنسان من حيث علاقته بالزمان . ومن ثم نمت الجغرافية التاريخية ، وكان فى نموها خير وفائدة عظيمة للعلم . ثم إن بعض كتاب الجغرافية التاريخية ألهبتهم حماسة المستكشف الناشىء فذهبوا إلى أبعد مما ينبغى حتى لقد أنشأ واحد منهم يفسر الأديان بواسطة الجو وحده زاعما أن « التوحيد ثمرة الحياة الصحراوية » . وغنى عن البيان أن هذا سخف يعادل سخف ماركس عند ما جزم بأن الإصلاح الدينى كان ثمرة الرأسمالية البرجوازية . ومع ذلك فمثل هذه الدعاوى المسرفة يمكن ردها إلى مقامها المعقول بعرضها على محك الانتقاد .

وللتاريخ فى الآونة الحاضرة . عدا ما ذكر ، حليفان آخران هما الأنثروبولوجيا أى علم الإنسان ، والأركيولوجيا(١) أى علم الآثار . أما علم الإنسان فلم يبلغ علم من العلوم مبلغه فى حمل المؤرخين على الإيمان بتلك الحقيقة العميقة الهامة القائلة بالوحدة الجوهرية للجنس الإنسانى . وأما علم الآثار فانه من ناحيته وسع توسيعاً لا يدرك مداه تصور المؤرخين لطول الزمن

(١) لبيان أهمية هذين العلمين فى دراسة التاريخ نحيل القارىء على رسالتى « مبادىء الآداب والثقافة » و « أعمال الأركيولوجيا » الواردتين فى هذه السلسلة . (المؤلف)

الذى نما فيه المجتمع الإنسانى . لقد رفع الحجب عن الأحقاب المتطاولة السابقة على التاريخ (أى التى ليس لها تاريخ مدون) ثم عرضها على الأنظار على نحو يستثير العجب العجاب . لقد كنا إلى أواخر القرن التاسع عشر نجد الناس يطيعون ويصدقون تاريخا تجعل خلق الكون فى عام ٤٠٠٤ ق . م وتحشر كل تاريخ العالم فى مدى من الزمن يقل عن ستة آلاف سنة ، فإذا بعلم الآثار يرجع وجود إنسان بيلتداون إلى ١٠٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وإنسان هيدلبرج إلى ٢٥٠,٠٠٠ عام قبل الميلاد ، وإنسان جاوه القريب من القردة إلى ٥٠٠,٠٠٠ عام قبل الميلاد . وهو مع ذلك يشير من طرف خفى إلى أن هذه الكشوف لا يحتمل أن تكون آخر ما وفق إليه أو رفع الحجب عنه . ثم إن علم الآثار لم يقف عند حد افتتاح أقطار جديدة للعلم بإنسان العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث ، ولكنه بما كشف من مخلفات المدنيات الغابرة لمصر وبابل وإقريطش وآسيا الصغرى ، قد أضاف فوق ما تقدم فصولا قيمة إلى علمنا بالتاريخ القديم .

وقد ترتب على هذه الفتوح التى فتحت على علمى الإنسان والآثار نتيجتان هامتان : إحداهما أن روجعت القصة التى يرويها الكتاب المقدس عن الخليقة وخروج الإنسان من الجنة مراجعة مقرونة بالنقد والتمحيص ، وأعيد تنظيم السجلات التى تتناول أعمال بنى إسرائيل الأولى بحيث أصبحت نافعة مفيدة . والنتيجة الأخرى هى العدول التام عن المحاولات القديمة التى أراد بها أصحابها — من لدن أغسطين إلى

هجل — تكوين فلسفة للتاريخ . وخلاصة القول إن التاريخ لم يعد يعنى بفروض سابقة تتعلق بالحكمة من خلق الدنيا وخلق الإنسان ولا بأفكار ميتافيزيقية كامنة يظهرها مرور الزمن . وإنه قد وضع نفسه على قدم المساواة مع بقية العلوم التى تحاول أن تجلو لعقل الإنسان معانى الأشياء كما هى ، والسلام

« تم الكتاب »

مراجع الكتاب

مرتبة ترتيبا زمنيا

T. H. Buckle : History of Civilisation (London. 1857 — 1866)

J. G. Droysen : Grundriss der Historik (Jena 1885)

C. Kingsley : The Limits of Exact Science as applied to History (Cambridge. 1860)

J. G. Droysen : Erhebung der Geschichte zum Rang einer Wissenschaft (Leipzig. 1862)

J. A. Froude : The Science of History (London. 1864)

J. Caird : The Science of History (Glasgow. 1886)

W. Stubbs : Seventeen Lectures on the Study of History (Oxford. 1886)

R. Flint : History of the Philosophy of History (Edinburgh. 1893)

E. Bernheim : Lehrbuch der historischen Methode (Leipzig. 1894)

C. V. Langlois et C. Seignobos : Inttoduction aux Etudes Historiques (Paris. 1898)

J. B. Bury : Inaugural Lecture on History (Cambridge. 1903)

P. Villari : Discussioni critiche e discorsi (Milan. 1905)

F. J. Teggart : Prolegomena to History (Berkeley. 1916)

B. Croce : Teoria e Storia della Storiografia (Bari. 1920)

J. H. Robinson : The New History (New York. 1927)

M. M. Chaterji : History as a Science (London. 1927)

H. Sée : Science et Philosophie de l'Histoire (Paris. 1928)

Lucy M. Salmon : Why is History Rewritten ? (New York 1929)